

البرسفة

والميراث الدامي

جميع حقوق الطبع محفوظة لمركز المحروسة

الطبعة الثانية يناير ١٩٩٧

عنوان الكتاب : البوسنة والميراث الدامي

اسم المحرر : نزار سمك

الناشر : مركز المحروسة للبحوث والتدريب والنشر

٤ شارع ٩ ب المعادي - ت : ٣٧٥٢٠٣٣

المدير العام والمشترف على السلسلة : فريد زهران

مراجعة : مصطفى عبادة الغلاف للفنان : أحمد بهاء الدين

صف وتنفيذ : عبيد حسن

رقم الإيداع : ٩٦/٤٥٤٠

الترقيم الدولي I.B.N.S : 977-5652-47-2

الموسنة
والعيراش الدامي

إهداء

إلى ... الطفلة البوسنية "إيرما" وأقرانها .. وإلى .. "شيماء"
المصرية وغيرها .. ضحايا التعصب والهمجية والبربرية
والقتل العشوائي .

ثم إلى "مريم" طفلتى .. لعلها تعيش فى عالم خال من
التعصب والهمجية والبربرية . عالم يسوده العقل والتسامح.

نزار

الفهرس

٩	مقدمة الطبعة الثانية
	مدخل
١٧	الفصل الأول : تكوين البلقان
٢٧	الفصل الثانى : دخول الأتراك للبلقان
٣٧	الفصل الثالث : البيزانطيون والأتراك والبلقان
٥١	الفصل الرابع : من المملكة الصربية إلى يوغسلافيا
٦٣	الفصل الخامس : أسباب تفجر الصراع
٧٧	الفصل السادس : الأطراف الدولية الفاعلة فى الأزمة
٩١	الفصل السابع : أطراف دولية غير فاعلة
٩٩	الفصل الثامن : البوسنة والمجتمع الدولى
١١٩	الفصل التاسع : البوسنة وتأكيد الأدوار
١٣٥	الفصل العاشر : الصرب والتلاعب بالمجتمع الدولى
١٣٥	الفصل الحادى عشر : البوسنة وتوظيف الإسلام
١٧٠	الهوامش

مقدمة الطبعة الثانية

دفعنى إلى تتبع الأزمة اليوغسلافية ومأساة شعب البوسنة تحديداً، الظروف الدولية التى تفجرت فيها تلك الأزمة، وتعدد واختلاف وجهات النظر فى التعامل معها وتفسير أسبابها، واختلاط كل ذلك بأساطير قديمة وحديثة تم استحضارها من الذاكرة الجمعية وتضخيمها وتوظيف الكراهية المخزونة فى تأجيج حدة الصراع والإسراع بمعدلات الانهيار والتفكك، ربما بأكثر مما كان متوقعا ومحسوبا، ومما كان يخطط له، بحيث باتت الأزمة اليوغسلافية ومأساة البوسنة برميل بارود يهدد القارة الأوروبية كلها فى زمن توحيدها !. كان اللافت للنظر فى تلك الأزمة شيئين الأول : تفجرها فى ظل سعى أوروبا إلى التوحد السياسى وعقب التبشير بنظام أطلقوا عليه النظام العالمى الجديد تحدثوا كثيرا أثناء الترويج له عن الشرعية الدولية، واحترام قرارات المجتمع الدولى والأمم المتحدة الممثلة له - كما يشاع - وعدم مشروعية العدوان أو التصديق عليه كأمر واقع والقبول بنتائجه. وهذا يعنى عدم تحقيق أية مكاسب للطرف المعتدى. وكلها كما نرى شعارات جميلة وبراقة، نحن أبناء العالم الثالث أحوج ما نكون لتحقيقها والتعلق بها - ولازلنا - بالرغم من أن الشعب العراقى راح ضحية تلك الشعارات بينما ظل النظام العراقى على حالة وتلك لعمري مفارقة كبيرة فى

النظام العالمى الجديد - وفينا أيضا- حيث لازلنا نحن أبناء المنطقة العربية تحديدا ندفع وحتى الآن ثمن تحقيق الشرعية الدولية وثمان تجاهلها.

وإذا كانت الشرعية الدولية كما يريدونها قد تحققت فى الكويت وبات العالم كله يقول ما فات قد فات وما حدث قد حدث، والواقع الجديد الآن يقول أن ثمة عالم جديد يتشكل وثمة شرعية دولية ستكون موضع احترام المجتمع الدولى، وان هذا المجتمع من خلال "أممه المتحدة" سيتولى تحقيق السلام والعدل فى هذا العالم إلخ. إذا كان كل ذلك يقال كدعاية لهذا النظام المزعوم فقد جاءت أزمة يوغسلافيا والبوسنة تحديدا لتفضح هذا النظام وتضعه أمام محك حقيقى ومشكلة حقيقية فى قلب قيادة المجتمع الدولى، فى القارة الأوربية، وإذا بهذا النظام العالمى الجديد وكل شعاراته لا شئ. وإذا بالمجتمع الدولى -الغربى طبعاً- والأمم المتحدة يسقطون أخلاقيا وسياسيا فى مستنقع البلقان وتبقى مأساة البوسنة والهرسك شاهدا على هذا السقوط على زيف وكذب كل الشعارات البراقة التى رفعها المبشرون بهذا النظام. بل ودليل على كذب هذا المجتمع الغربى وتخليه عن أهم القيم التى رفعها طوال الأعوام الماضية، قيمة التعددية والإيمان بالآخر واحترام وجوده وحقه فى الاختلاف والحياه، حين تقاعس عن حماية التعددية الحقيقية ثقافيا ودينيا فى دولة البوسنة ومدينة سراييفو التى كانت خير تعبير عن تلك التعددية.

الثانى : هو إقحام الإسلام وتوظيفه فى تلك الأزمة من قبل الأطراف المتصارعة أو المؤيدة لأحدهما بصرف النظر عن صدق كل طرف فى دعواه، وبصرف النظر أيضا عن أيهما الأكثر توظيفا لذلك، فالمهم أن النتيجة المترتبة على هذا التوظيف، كانت سلبية تماما بالنسبة لقضية شعب البوسنة العادلة، الذى وجد نفسه يدفع ثمن مغالطات وأخطاء الآخرين، سواء تلك التى أطلقها الصرب عن تأسيس دولة أصولية إسلامية - مع أنهم يؤسسون دولة أصولية نازية صربية - فى قلب القارة والتى وجدت أذانا صاغية لدى أطراف غربية فى ظل البحث عن عدو جديد أو تبنى البعض لهذه المقولة وتأكيد إسلامية الدولة سواء داخل البوسنة، أو خارجها من قبل رافعى رايات الجهاد المقدس، والذى ثبت أنهم أكثر ضررا على الذين يهبون لنصرتهم وعلى الإسلام ذاته من باقى الأعداء الذين يتوهمون أنهم يحاربونهم، لأنهم يقدمون خدمات جليلة للأعداء تساعد على تحقيق أهدافهم ويشوهون صورة الإسلام ويضيعون حقوق من يدافعون عنهم.

ونحن فى تتبعنا للأزمة وأسبابها -فى الطبعة الأولى- تعرضنا بشكل مختصر ومكثف لتاريخ البلقان ودخول، الأتراك إليه. وكيف ولماذا تبنت بعض شعوب المنطقة الإسلام، مروراً بتجربة تيتو، وتوقفنا فى رصد أحداث الأزمة عند نهايات عام ١٩٩٣ وكانت لنا توقعات ونتائج فضلنا أن نضيف إليها ما حدث فى العامين الماضيين حتى توقيع الاتفاق الأخير لنرى هل اختلف

الأمر عما كان متوقعا. كما وأننا قد توسعنا بعض الشيء فيما يخص الخلفية التاريخية أملين من وراء ذلك أن يساعد هذا الكتاب بما حواه من وقائع وأحداث وتحليلات فى كشف الغموض واللبس الذى أحاط بتلك الأزمة والتي تحولت إلى جريمة إنسانية ومجزرة بشعة شارك فيها الجميع وراح ضحيتها شعب البوسنة. فهل فى ظل هذا السلام المنقوص ستسترد البوسنة عافيتها وجمالها وسماحتها وتعدديتها الثقافية الحقيقية كما كانت... ربما... ربما يمكن إعادة إعمارها وبناء ما تهدم وترميمه - فهذا استثمار !! - ولكن هل يمكن إعادة الروح مرة أخرى إلى بقايا الانقراض البشرية هناك ؟ هل يمكن ترميم تلك الروح ؟! وكم من الوقت تحتاج لإتمام ذلك ؟ هل ستعود إلى الأطفال - أطفال الحرب - براءتهم وصفوهم وأحلامهم ؟ هل يمكن أن يتعايش البوسنيون باختلاف دينهم كما كانوا ؟.. إن هذا ليس بالأمر اليسير فالأكيدا أنك لا تستحم فى النهر مرتين والأكثر تأكيدا أنه لاشيء يأتى ويمضى دون أثر.

نزار محمود سمك

مدخل

تتفرد المشكلة اليوغسلافية الحالية بتداخل عوامل كثيرة بعضها محلى داخلى وبعضها دولى خارجى، بعضها تاريخى وبعضها حديث الأمر الذى يجعل منها مشكلة شديدة الخصوصية والتعقيد معا، خاصة عندما يتداخل ويتزامن هذا بذلك.

وإذا كانت المشكلة نتاجا لفقدان القيادة الكاريزمية والإرادة الفكرية القادرة على توحيد هذا الكيان كما كان فى عهد تيتو، فإنها أيضا تعبيراً عن مجمل الصراعات القديمة والكراهية المخزونة وانهيار عقيدة الإدارة الذاتية الاشتراكية، وتراجع نزعة القومية التقدمية التى وظفت الكبرياء القومى لتعميق الانتماء والمساواة بين الجميع. لتحل محلها النزعة القومية الرجعية الفاشية التى تحتكر لنفسها الحق التاريخى. وبالتالي تستبعد باقى المجموعات الأخرى الأقل نقاءاً من وجهة نظرها. وهنا تصبح المشكلة ليست فى إقرار مبدأ حق تقرير المصير ولكن فى كيفية تنفيذه فى ظل النزعة المتطرفة للبعض خاصة عندما يشتبك القومى الفاشى التوسعى بالدينى عندما يتم التكرار لحق الحياة وليس تقرير المصير فقط.

وإذا كانت الأزمة أيضا تعبيراً عن انهيار المنظومة الشيوعية فى العالم. فإنها كذلك قد حدثت فى ظل متغيرات عميقة فى أوروبا الغربية حيث تنتقل الجماعة الأوروبية من حالة التعاون الاقتصادى إلى حالة التوحيد السياسى وصياغة سياسية خارجية وأمنية مشتركة. وهنا أصبحت الأزمة اليوغسلافية أول

اختبار حقيقى لطموح الجماعة الأوروبية يكشف مدى قدرتها على حل مشاكلها الداخلية. وتبنى سياسة خارجية وأمنية مشتركة لمواجهة تلك الأزمة التى تهدد أمنها الداخلى. خاصة وأن احتمال انتقال هذه العدوى إلى أماكن أخرى فى البلقان هو أمر وارد الحدوث. ويزداد الأمر تعقيدا فى ظل الرغبة الأمريكية لتأكيد دورها الجديد فى أوروبا بما يتلائم مع تلك المتغيرات سواء كانت انهيار أنظمة الحكم فى أوروبا الشرقية أو إتمام الوحدة الأوروبية.

وعموما وللوقوف على ما يحدث فى يوغسلافيا الآن نرى أنه لابد من الإطلاع على تاريخ هذه المنطقة - التى تكونت فيها يوغسلافيا الحالية فيما بعد - والمعروفة بشبه جزيرة البلقان ليكون ذلك مدخلا لمعرفة خصوصية وتركيب هذه المنطقة وما حدث لها وفيها ؟ ومتى كانت تستقر ؟ ومتى تتفجر ؟ ولماذا ؟ وما هى الأسباب والعوامل التى أدت إلى تفجيرها فى الماضى والحاضر، ولماذا كان الصراع فى البوسنة والهرسك تحديدا هو الأكثر دموية وشراسة وهمجية وبربرية ؟ هل هو الاختلاف العرقى كما يقال ؟ ولكن هل أى اختلاف عرقى لا يمكن حله إلا بالإبادة أو التهجير ؟ وهل سيكون ذلك هو الحل مع باقى العرقيات الأخرى المنتشرة فى المنطقة ؟ وإذا كانت الإجابة المنطقية هى النفى والرفض فلماذا إذن هذا العنف فى البوسنة والهرسك ؟ هل هو بسبب الاختلاف الدينى وبالتالى الثقافى والحضارى ؟!، ولكننا نعود ونسأل وهل أى اختلاف دينى أو مذهبى لا يحل إلا بالتصفية الجسدية والإبادة والقضاء على الآخر تماما.

صحيح انه منذ زمن طويل كانت أوروبا سباقاً في النزول إلى مستنقع الحروب الدينية والمذهبية والعنصرية المتسمة بالشراسة والهمجية، سواء في عصورها الوسطى أو في عصرها الحديث " فتاريخ أوروبا ليس غريباً عليه اختلاط النضال الديني بالنضال السياسي، فقد كان الصراع مثلاً بين الكاثوليكية والكلمنية (نسبة إلى كالفن البروتستانتى) صراع غير صريح بل يقع تحت ستار رغبة الدولة الوطنية الحديثة فى أن تجتمع أسباب السلطة كاملة وغير موزعة فى يد الحكومة الموحدة الوطنية أو تحت ستار رغبة هذه الدولة الوطنية (القومية) ذاتها فى تحقيق أغراضها الوطنية، سواء اتخذت هذه الأغراض شكل التوسع على حساب جارتها أو محاولة المحافظة على التوازن الدولى فى أوروبا (١) " .

وصحيح كذلك أن السلافيين تعلموا فى ذلك المستنقع وفى تلك المحرقة منذ العصور الوسطى وحتى الآن، وصحيح أيضاً أنه عندما يكون الأمر المطروح هو القضاء على الطرف الآخر قضاء تاماً يكون الصراع فى هذه الحالة صراع وجود ويصبح من السهل والحال هكذا إرجاع هذا الصراع إلى أسس دينية وهو أمر بقدر ما فيه جانب من الصحة لا يجب تجاهله، إلا أنه يفتح أبواب الجحيم على مصراعيها إذا تم تضخيمه واستغلاله وهو جحيم لا ينجو منه أحد.

لذلك فنحن نتساءل هل من الممكن أن يكون هناك عامل واحد - مهما كانت وجاهته وقوته - وراء هذا الصراع المرير أم أن هذا الصراع هو حصيلة عوامل كثيرة بعضها بعيد جداً وبعضها حديث جداً بعضها داخلي وبعضها خارجي. عوامل اختلط فيها الدينى بالقومى بالسياسى بالاقتصادى بالتوازنات الدولية داخل أوروبا والتي أصبحت من الضرورى مراجعتها فى

ظل المتغيرات الجديدة حتى ولو تطلب الأمر تغيير بعض الحدود وإيادة البشر كما حدث من قبل. علما بأنه أيا كانت الأسباب أو العوامل فإنها ليست مبررا على الإطلاق لما يحدث من جرائم. كما إنها لا تمنح هذا الفعل أى قدر من المشروعية ولن تلغى الجرم ولا مسئولية المجتمع الدولى الغربى تحديدا.

ونحن هنا إنما نحاول أن نضع هذه المسألة فى سياقها الصحيح والموضوعى - بقدر الإمكان - حتى نفهم كيف يمكن إعادة الاستقرار إلى هذه المنطقة مرة أخرى، هذا إذا كانت هناك رغبة أو مصلحة فى ذلك ! فهذه المنطقة كانت دائما مرهونة بالدور الفاعل الذى تقوم به الإمبراطوريات المحيطة بها، والساعية إلى السيطرة عليها فى الماضى وأيضا الدول القوية المحيطة بها الآن والباحثة عن دور جديد يتوافق مع مكانتها الحالية والساعية إلى استعادة هيبتها الضائعة وسيطرتها القديمة أو حلمها القديم .

الفصل الأول

تكوين البلقان

البلقان هو الاسم الذى يطلق على شبه جزيرة كبيرة فى جنوب شرق أوروبا، حدودها الشرقية البحر الأسود، والجنوبية البوسفور وبحر "ايجه" و "مرمرة" والشمالية نهر "الدانوب" والغربية البحر الأدرياتي وهى تضم أراضى ٦ دول هى ألبانيا ورومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا الحالية واليونان وتركيا، وهى من أكثر المناطق التى شهدت صراعات ومذابح رهيبة على مر تاريخها حتى أنه اشتق من كثرة الصراعات الدموية التى سادت ربوعها لفترات طويلة كلمة "البلقنة"، التى أصبحت صفة تطلق على الحروب والصراعات والنزاعات الداخلية المشابهة. وهذه الحروب تتسم عادة بقدر كبير من الدموية والهمجية والجنون الذى يصل إلى حد تدمير الذات.

إضافة إلى هذه الخصية فإن منطقة البلقان كذلك، هى منطقة جذب لهجرات جماعية كبيرة فقد غزاها الرومان فى القرن الثالث قبل الميلاد، حيث خضعت هذه المنطقة للحكم الرومانى حتى القرن الرابع الميلادى، وفى هذا القرن حدثت المشكلة الكبرى التى قسمت المسيحيين داخل الإمبراطورية الرومانية إلى معسكرين وجرت الصراعات الدينية والسياسية حتى أن الإمبراطور قسطنطين بدل مذهبه الدينى عندما أراد نقل عاصمته من الغرب إلى الشرق وذلك لتحقيق مصالحه السياسية. وقد بدأت المشكلة فى كنسية الإسكندرية على إثر الخلاف الذى حدث بين الراهبين أريوس واثناسيوس حول طبيعة السيد المسيح والعلاقة بينه وبين الاله الأب وانقسمت الإمبراطورية الرومانية إثر ذلك على أسس مذهبية إلى إمبراطوريتين : الإمبراطورية الرومانية الشرقية التى عرفت فيما بعد بالإمبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية، والإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما. الأولى صارت أرثوذكسية المذهب

شرقية الطابع يونانية اللغة والحضارة، والثانية اعتنقت المذهب الكاثوليكي وصارت غربية الطابع لاتينية اللغة والحضارة. هذا الانقسام كانت له آثاره البعيدة والكبيرة على أوروبا فيما بعد وعلى البلقان خاصة كما سنرى لاحقا.

في هذه الفترة التي شهدت هذا الانقسام بدأت الهجرات السلافية الكبيرة تعرف طريقها إلى هذه المنطقة، وهي هجرات كانت تبحث عن أماكن أفضل للعيش أو تهرب من ضغط قبائل رعوية أخرى. وقد بدأت هذه الهجرات منذ القرن السادس الميلادي، والبعض يقول القرن الرابع الميلادي، وقد أصبحت هذه الهجرات التي أخذت شكل الغزو تشكل تهديدا على استقرار الإمبراطورية الرومانية التي عجزت عن ردهم.

ففي الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية الشرقية مشغولة في حروبها مع الفرس تارة والعرب تارة أخرى "بدأ السلاف والافار يستغلون الفرصة ويتوغلون داخل تراقيا ومقدونيا ابتداء من سنة ٥٩٢، واشتد ضغطهم على الجبهة البلقانية واجتاحوا شبه جزيرة البلقان بأكملها حتى بدت الإمبراطورية على شفا هاوية سحيقة.. ومع ظهور العرب وإجهازهم على الفرس وهجومهم على القسطنطينية نشبت اضطرابات في البلقان أثارتها عناصر سلافية إضافة إلى عنصر جديد من البرابرة الآسيويين وهم البلغار* الذين تركوا مقرهم على الفولجا وعبروا الدانوب سنة ٦٧٩ ليتوغلوا في أراضي الدولة البيزنطية في البلقان" (٢).

والثابت أن هؤلاء السلاف شاركوا في معارك العرب -

*البلغار : من أصل غير سلافي لكنهم تأثروا بحضارة السلاف ولغتهم وعاداتهم لذلك أجمع الباحثون على اعتبارهم سلاف.

ضد بيزنطة كما شاركوا فى معارك بيزنطة ضد العرب وضد الأتراك الوافدين. " عندما كانوا فى الأصل جنودا مرتزقة فى الجيوش البيزنطية ثم رأت بيزنطة لأغراض دفاعية أن تنقلهم من مواطنهم فى البلقان إلى الأناضول" (٣).

وهنا كما يقول د. أحمد السعيد مترجم كتاب قيام الدولة العثمانية فى مقدمته "التقى الأتراك الغز "أى التركمان" بإخوان لهم من الغز والبجناك النصارى والمانويين والشامانيين والبجناك هؤلاء أو البجناق هم الذين يعنينا أمرهم، حيث يذهب محمد السيد الدغيم (٤) إلى أن البوشناق (وهم الشعب الذى يسكن البوسنة) هم "البجناق" الذين كانوا يسيطرون على منطقة نهر الفولجا ثم حاصروا القسطنطينية ووصلوا إلى حدود إيطاليا، وأنه تم تحريف كلمة "بوجناق" بقلب الجيم الفارسية ذات الثلاث نقاط إلى شين ويضيف أن البجناق والبلغار اسلموا منذ العصر العباسى. ورحلة ابن فضلان عام ٣١٠ هجرية والذى أوفده الخليفة العباسى ليعلمهم أمور دينهم من الرحلات المشهورة وفيها تحدث عن إسلام ملك البلغار وان كنا لا نعرف متى كان إسلامه ؟ فهل انتقل الدين الإسلامى مع البلغار إلى بلغاريا ومع البوشناق إلى البوسنة قبل الغزو العثمانى لهذه المناطق ؟، هذا بالطبع احتمال وارد ويصبح إيفاد بن فضلان أمر منطقى خاصة وان الإسلام دخل منطقة آسيا الوسطى الروسية مبكرا. إضافة إلى أن جنوب إيطاليا وصقلية كانا مكانا للمسلمين حتى قبل الغزو العثمانى " فقد حدث أن طلب لويس الثانى فى الغرب المعونة من باسل المقدونى ضد المسلمين فارسل الإمبراطور البيزنطى سنة ٨٦٨ أسطوله الذى نجح فى تطهير الادرياتي من المسلمين" (٥) والادرياتيكي هذا هو أحد حدود البلقان كما وأن "الأمويين وصلوا فى غزواتهم إلى سواحل بحرى مرمرة وإيجة وكانوا قد

استولوا من قبل على أرمينية وقيليقية وفوماجين" (٦).

نعود ونقول أن حركة الهجرة عبر هضبة الأناضول إلى البلقان كانت دائمة، حيث يعتبر البلقان بوابة آسيا الصغرى إلى أوروبا. وهو المعبر بين أوروبا الشرقية والغربية وبالتالي هو نقطة اتصال - أو تمفصل - بين حضارتين وثقافتين مختلفتين ودائما ما كانتا متصارعتين.

ولأن هذه المنطقة منطقة جذب وتوسع في نظر أي إمبراطورية قريبة منها أو محيطة بها، فإن الصراعات الداخلية فيها لم تنقطع. إضافة إلى أنه داخل الإمبراطوريتين الرومانييتين الشرقية التي كتب لها البقاء طويل، أو الغربية التي لم تعمر طويلا تواصلت الصراعات. فلم يقتصر الصراع فقط حول طبيعة السيد المسيح وانقسام الكنيسة إلى كنيسيتين بل حدث في القرن الثامن خلافات وصراعات بين الأيقونيين واللا ايقونيين * سادت خلالها حالات اضطهاد كثيرة. ووصل الأمر إلى حد حدوث انقلابات داخل الأسرة الإمبراطورية الواحدة وقد أدى هذا الخلاف كذلك إلى زيادة الفجوة والتباعد بين الشرق الأرثوذكسي والغرب الكاثوليكي. ثم تلت هذه المرحلة مرحلة الصراع بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية والتي أصبح الصراع فيها بين الإمبراطور والبابا صراعا حادا يصل إلى حد إصدار الإمبراطور قرارا بالعزل للبابا أو إصدار البابا قرارا حرمان للإمبراطور، كان أهمها حينما أصدر البابا ليو التاسع

*صراع بين من يقدسون الأيقونة (صور المسيح والقديسين)، ويقبلونها وبين من يرفضون هذا التقديس والتقبيل ويعتبرونه هرطقة وعودة إلى الوثنية، وفي هذا الأمر نلاحظ مدى التقارب مع النظرة الإسلامية للصور والتماثيل والتي ربما تأثرت بها هذه المنطقة أو العكس.

قراراً بتكفير الإمبراطور البيزنطى ورد عليه الإمبراطور بقرار مضاد. عموماً ونتيجة لكل ذلك تمت القطيعة النهائية بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية، بعد أن كانت الروابط بينهما لا زالت قائمة وتم إغلاق الكنائس التابعة لروما فى أراضى الإمبراطورية البيزنطية واستقلت الكنيسة الشرقية تماماً.

ولأن خط الانقسام بين الإمبراطوريتين الرومانية الغربية الكاثوليكية التى تتحدث اللاتينية والرومانية الشرقية الأرثوذكسية والتى تتحدث اليونانية، كان يمر بالمنطقة التى عرفت فيما بعد بيوغسلافيا، فقد كان لهذا أثره السلبى على سكان هذه المنطقة أكثر من غيرها حيث ازدادت حالة الكراهية والعداء بين المذهبين، وقد عمق من حالة الكراهية هذه بين الأرثوذكس والكاثوليك

كما يقول د. سعيد عاشور أن الحملة الصليبية الكاثوليكية الرابعة والتى كان هدفها الأساسى التوجه إلى مصر سنة ١٢٠٤ بوصفها الدولة التى لعبت الدور الأساسى فى دحر الصليبيين عن بلاد الشام. هذه الحملة عندما فشلت فى تدبير الأموال اللازمة توجهت إلى القسطنطينية وأعملت فيها النهب والتدمير لتوفير الأموال وكانت تلك هى أخطر ضربة تعرضت لها القسطنطينية حتى سقوطها فى أيدي الأتراك عام ١٤٥٣.

نتيجة لذلك كان البلقان من أكثر الأماكن التى تجلت فيها هذه الكراهية فهو يضم مذاهب شتى بما فيها الهرطقة. وعليه نشبت المعارك الطاحنة والمريرة بين السلاف الأرثوذكس والكاثوليك خاصة حينما أصبح لدى الصرب الأرثوذكس الرغبة فى بناء إمبراطورية وكذلك البلغار والكروات الذين استطاعوا تكوين دولتهم المستقلة والتى استمرت حتى عام ١١٠٢ بعدها تم

إلحاقهم بالمملكة المجرية تم تمكن آل هابسبورج من ضم الجميع إلى مملكتهم. ومع ضعف الإمبراطورية البيزنطية تولى الصرب الطموح في توسيع دائرة ملكهم ونفوذهم وأنتزع ملكهم "ميلونين" ١٢٨٢" سكوبجي المقدونية من بيزنطة وبدأ التوسع الصربي في مقدونيا. بعدها أسس ملكهم ستيفن دوسان (١٣٣١-١٣٥٥) مملكة قوية كانت تطمح إلى الاستيلاء على القسطنطينية ذاتها.

في ظل هذا الصراع وهذه الرغبات التوسعية سعى الطرفان إلى احتلال أراضي وبلاد شعب البوشناق، وهو شعب وافد مثلهم - كما قلنا - من آسيا. وهناك من يقول انه لا فرق بينهم وبين السلاف الصقالبة والبلغار الذين وصلوا إلى هذه المنطقة منذ زمن بعيد، وبالتالي لا فوارق عرقية بين تلك الشعوب، وان الصراعات بينهما هي في الغالب مذهبية وتوسعية. وعلى هذا الأساس تعرض شعب البوشناق الذي يسكن بلاد البوسنة إلى مذابح شديدة على مدى تاريخه قبل أن يدخل دين الإسلام، أو بعد أن اعتنق الإسلام على يد الدول المسيحية المجاورة الصربية الأرثوذكسية والكرواتية الكاثوليكية.

وإذا كان احتمال وصول هؤلاء البجناق إلى منطقة البلقان وهم مسلمون أو يحملون بعض الأفكار الإسلامية من مواطن هجراتهم الأولى هو احتمال ضعيف فإن المصادر التاريخية تؤكد أن أهالي البوسنة (البوشناق) كانوا يعتنقون مذاهب خاصة بهم مشتقة من العقيدة المسيحية الأولى تنسب إلى "ماني الفارسي" وهو رجل اشتق من المسيحية الأولى ديانة عرفت فيما بعد بالمانوية وهي عقيدة قوامها الصراع بين النور والظلام، وتقول بثنائية الكون وهي فكرة جوهرية في الديانة الفارسية القديمة وكانت منتشرة في آسيا الوسطى وروسيا ثم

عرفت فى بلغاريا بعد تعديلها باسم "البوجومولية" نسبة إلى رجل دين بلغارى اسمه "بوجوميل" ويقول محمد السماك (٧) "أن المؤمنين بهذه العقيدة رحلوا من بلغاريا إلى صربيا هربا بعقيدتهم. ثم فروا من صربيا إلى البوسنة نتيجة للقهر والتعذيب والبطش الذى تعرضوا له على يد ملكهم الذى ارتد عن البوجوميلية واعتنق الأرثوذكسية، وظل هذا الشعب يتعرض للاضطهاد الشديد على يد الأرثوذكس والكاثوليك حيث اعتبرهم الباباوات هراطقة وطالبوا بالقضاء عليهم وظل إتباع هذه الديانة يتعرضون لحملات عسكرية شديدة بتهمة الذنقة والهرطقة من قبل الأرثوذكس والكاثوليك. وهكذا ونتيجة للاختلافات المذهبية التى تحكمته فى توجيه الرغبات السياسية والرغبات التوسعية أصبحت منطقة البلقان مسرحا دائما للحروب الدينية المذهبية تارة، والحروب التوسعية والسياسية تارة أخرى خاصة عندما كان ينشط البعض لتكوين مملكة خاصة بهم كالصرب والبلغار. بهذا صارت الصفة الأساسية لهذه المنطقة هى عدم الاستقرار وأصبحت الشعوب التى استقرت فى هذه المنطقة شعوب متقاتلة بعد أن كانت شعبا واحدا قبل أن تبدأ هجرتها الأولى إلى هذه المنطقة، وقبل أن تحدث الانقسامات المذهبية، وكانت افطع هذه الحروب هى تلك التى كانت بين الأرثوذكس والكاثوليك أو بين الاثنين وبين إتباع العقيدة البوجوميلية سكان منطقة البوسنة حتى وصل العثمانيون إلى منطقة البلقان وأصبح تاريخ هذه المنطقة وسكانها مرتبطا بتاريخ الإمبراطورية العثمانية صعودا وهبوطا فيما بعد.

الفصل الثانى

دخول الأتراك للبلقان

منذ وصلت القوات العربية إلى المنطقة المعروفة حالياً بآسيا الوسطى والتي كانت قديماً تركستان - أى بلاد الترك - بدأ الاحتكاك بين العرب والأتراك، والذين كثيراً ما سببوا متاعب للأمويين خاصة الأتراك الشرقيون، فقد كان الأمويون يتركبون حكم هذه المناطق لآبناؤها. ومع ظهور الدولة العباسية واصل الأتراك صراعهم مع العباسيين إلى أن استقرت الأوضاع فى عهد الخليفة المعتصم بعد أن أصبح الأتراك جنوداً فى جيش الخليفة خاصة الأتراك الغربيون. من هذه اللحظة بدأ الأتراك رحلة الخروج من واحاتهم فى تركستان إلى فارس والعراق. إلى أن تمكن الأتراك السلاجقة من إسقاط الدولة البويهية وتشكيل دولتهم. كانت دولة السلاجقة الأتراك التابعة للخلافة العباسية هى الدولة الملاصقة للدولة البيزنطية، وقد استطاعت هذه الدولة أن تعيد للدولة العباسية هيبتها التى فقدتها على يد الاسرة المقدونية البيزنطية حيث كان السجال بينهما دائم فتارة تدفع بيزنطة الجزية وتارة تمتنع.

فى ظل الدولة السلجوقية ومع ضغط البدو التركمان عليها توجه "إلب أرسلان" إلى القفقاس للحد من ضغط هؤلاء البدو وفى تلك الحملة تمكن "إلب أرسلان" من إلحاق هزيمة بالبيزنطيين فى موقعة "ملاذكرد" سنة ١٠٧١ فقدت على أثرها الامبراطورية البيزنطية أجزاءها الشرقية. وبالرغم من أن أرسلان لم يتوسع عقب هذا الانتصار فى الأناضول، فقد فتح الباب أمام الرعاه التركمان للتوغل فى الأناضول. بعدها بدأ السلاجقة الأتراك فى التوسع داخل آسيا الصغرى "خاصة وأن البيزنطيين أنفسهم استعانوا بالعنصر التركى فى صراعاتهم الداخلية وبذلك تغلغل السلاجقة فى آسيا الصغرى حتى بلغوا أجزاءها الداخلية الغربية" (٨). وبالطبع يمكن إرجاع نجاح

الاتراك فى أجتياح آسيا الصغرى إلى التماثل البيئى والجغرافى مع المناطق التى انطلقوا منها بانتصار السلاجقة وتكوين دولتهم القوية بدأت حدود بيزنطة تتراجع وتتقلص إلى ان جاء القرن الثالث عشر فانهارت دولة السلاجقة امام زحف المغول. كذلك وفى نفس الوقت كانت الامبراطورية البيزنطية التى لا زالت تعاني من حملة النهب والتدمير التى لحقت بالقسطنطينية عام ١٢٠٤ قد تلاحقت عليها التمردات داخل الولايات البلقانية.

مع اجتياح المغول للمنطقة اختلط هولاء الرعاه بالامارات الصغيرة المتحضرة إلى حد ما. ومن هذا الخليط وفى ظل هذه الظروف بدأت الدولة التى عرفت فيما بعد بالدولة العثمانية فى التكون والظهور "١٣٠٢" وهى الدولة التى أصبحت القوة السائدة فى المنطقة وعاشت ٦٢٣ تركت وراءها احداث وتاريخ لازالت اثاره باقية ولازال موضع جدل للآن.

منذ ظهور هذه الدولة استفادت من النظم الادارية والقانونية التى كانت سائدة فى المدن الإسلامية القديمة أثناء حكم العباسيين والسلاجقة، وبدأت فى توسيع رقعتها ليس على حساب الامبراطورية البيزنطية وحدها ولكن على حساب باقى الولايات التركية الصغيرة المتناثرة فى المنطقة التى زالت منها الدولة السلجوقية. وقد استطاع السلطان اورخان (١٣٢٦-١٣٥٩) ان يبدأ فى التحرك صوب أوروبا "فاستولى على غاليبولى عام ١٣٥٤ وحصنها لتكون مركز ثابت للعثمانيين فى أوروبا. ثم استولى السلطان مراد الاول على مدينة ادرنة سنة ١٣٦١ واصبحت اعظم مركز للعثمانيين حتى استيلائهم على القسطنطينية" (٩).

بدأ الاتراك فى الاستيطان فى هذه المنطقة والانطلاق منها إلى مناطق أخرى كتراقيا والمورة، وهو أمر جرهم إلى

الاصطدام بمملكة الصرب التي كانت قد تأسست وبلغت قوتها في عصر ملكهم ستيفن دوسان الذي كان يعد نفسه ليكون وريثا للامبراطورية البيزنطية بعد أن دب فيها الضعف والوهن نتيجة للصراعات الداخلية وتردى الاوضاع الاجتماعية، والتي كانت هي ايضا سببا في انتصار العثمانيون على البيزنطيين وعلى الصرب فيما بعد. "قبعد موت دوسان سنة ١٣٥٥ سحق العثمانيون الصرب نتيجة لما حاق بهم من تحريب وتمزق فكانت اول هزيمة للصرب عام ١٣٧١ كذلك خسرت صربيا لصالح العثمانيين مناطق بلغارية شاسعة ومعظم مقدونيا وبدأ العثمانيون بعد هذا في تأكيد فتوحاتهم في البلقان باحتلال منظم لليونان وبلغاريا" (١٠).

ولكن هذا لا يعنى ان الطريق كان ممهدا امامهم بشكل دائم " فقد اظهرت الممالك السلافية في شمال القسطنطينية وغربها عنادا في مقاومة العثمانيين اكثر مما فعل البيزنطيون انفسهم حين كونت فيما بينها حلفا دفاعيا سنة ١٣٨٧ تحت زعامة ملك البوسنة. وقد نجح هذا الحلف في وقف تقدم العثمانيين" (١١). ولكن مع وجود انقسامات داخل المجتمع الصربي "وميل كثير من الزعماء الاقطاعيين والنبلاء إلى السلطان العثماني في أزمة ١٣٨٩" (١٢). تمكن السلطان مراد الاول من انزال هزيمة ساحقة بالصرب في موقعة كوسوفو الاولى عام ١٣٨٩ وهي المعركة التي ترتب عليها سقوط مملكة الصرب ولا زالت ماثلة في اذهان الصرب حتى الآن "ففي عام ١٩٨٧ احتفل الصربيون في كوسوفو (الالبانية) بقيادة ميلوسيفتش (لم يكن قد صار رئيسا لصربيا بعد) بمرور ٦٠٠ سنة على هزيمة لازار القائد الصربي القديم في كوسوفو وارسلوا نعشه في رحلة عبر قرى صربيا استمرت عاما كاملا

تعهدوا خلالها بالانتقام واعادة المجد الصربي مرة أخرى" (١٣) والاكيد ان هذه الرحلة بكل ما فيها من رغبات تأريسة وعنصرية قد اثارت مخاوف كل المسلمين داخل صربيا والجمهوريات كما ايقظت مشاعر الصرب الانتقامية وحلم صربيا الكبرى.

بعد هذه المعركة الحاسمة تعزز الوجود العثماني في البلقان خاصة بعد أن تمت هزيمة القوات الصليبية في نيكوبوليس عام ١٣٩٦. ولكن مع هزيمة بايزيد أمام جحافل تيمور لك توقف الزحف العثماني في اتجاه باقى البلقان، إلى أن تمكن العثمانيون من تنظيم أنفسهم فأجتاحوا بلغاريا وانتصروا على الحلف المجرى في معركة فارنا عام ١٤٤٤ ثم في عام ١٤٤٨ تمكنوا للمرة الثانية من الحاق الهزيمة بهذا الحلف في معركة كوسوفو الثانية ثم سقطت القسطنطينية في ايدي الاتراك العثمانيون عام ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح وأصبحت هي عاصمة الامبراطورية العثمانية فيما بعد.

في تلك الفترة كانت البوسنة لازالت مستقلة، وقد رأينا ان ملكها قاد الحلف السلافي في مواجهة الاتراك. وقد ظلت البوسنة على حالها قوية إلى ان مات ملكها "تفرتكو الاول" (١٣٥٣-١٣٩١) فحل بها الضعف بعد ان كانت تقاوم العثمانيين مقاومة شديدة واستطاع العثمانيون تحقيق بعض الانتصارات بقيادة السلطان بايزيد عام ١٣٩٦. وظلت على حالها حتى اكمل محمد الفاتح الاستيلاء على كل اراضي البوسنة عام ١٤٦٣ بعد ان مزقتها الحروب الدينية. وفي عام ١٤٨٣ استولى الاتراك على الهرسك ايضا بعد ان كانوا قد فتحوا البانيا في عام ١٤٧٩. ونلاحظ هنا ان اكثر المناطق دخولا في الاسلام كانت اكثر المناطق مقاومة وصمود. وبعدها واصل العثمانيون تحركهم إلى

ان تمكنوا فى عام ١٥٢٦ من الحاق الهزيمة بالمجر فى موقعة "موهاكس" وبذلك سقطت مملكة المجر.

بلغت الامبراطورية العثمانية مجدها فى عهد سليمان القانونى وبموته - بالاضافة إلى اسباب اخرى توسع بول كولزفى ذكرها - بدأ الضعف يدب فى جسد الامبراطورية. إلى ان استطاعت اسرة كوبريللى الالبانية ان تجدد دمانها وتعيد بعض المجد والقوة اليها وحاولت للمرة الثانية اسقاط فينا حين قامت بحصارها الفاشل عام ١٦٨٣ "وعلى اثر تفهقرهم تعرض العثمانيون لسلسلة من الهزائم العسكرية امام الامبراطورية فى المجر وصربيا والبوسنة وامام البنادقة فى المورة وفى معركة "زنتا" عام ١٦٩٧ كان العثمانيون مضطرين للتوسل - بكل ما فى الكلمة من معنى - للحصول على السلام وكان عليهم ان يقبلوا بنودا صعبة فى معاهدة كارلوفتس سنة ١٦٩٩" (١٤).

بدأ نجم الامبراطورية العثمانية فى التراجع والافول حيث اصبحت فى اغلب الاوقات فى موقف دفاعى. بينما بدأ نجم الامبراطورية النمساوية يصعد فى سماء البلقان كطرف جديد فى موقف هجومى. ومنذ القرن السابع عشر سادت الحروب والفوضى الداخلية منطقة البلقان والامبراطورية العثمانية ذاتها حين بدأ حكام الولايات فى التمرد. وتزامن ذلك مع تمرد شعوب البلقان ضد الانكشارية واصبحت الامبراطورية النمساوية طرفا فى هذه الصراعات خاصة عندما ارتضى الكروات فى حصيلها طلبا للحماية من الاتراك بعد ان حققوا الانتصار على المجر. واصبحت كرواتيا بالنسبة للنمسا هى خط المواجهة وحائط الصد امام الاتراك وقد تمكن النمساويون من الاستيلاء على بلغراد لكنهم تراجعوا واعادوها مرة أخرى للاتراك عندما هددت

بروسيا بغزو النمسا (لا زالت العداوات الماضية تحكم ردود
الاقعال في دول أوروبا حتى الآن).

عندما أصبحت الأوضاع البلقانية بهذا الشكل حيث
الامبراطورية العثمانية في تراجع وانكماش والامبراطورية
النمساوية والروسية في تقدم وتمدد. ازدادت حركات التمرد
السلافية وبدأ الصرب في عام ١٨٠٠ اول محاولة لهم لانتزاع
السلطة بعد ان تفرغت قوات الانكشارية المحاربة للنهب والسلب
بعد ان استقرت في الاراضي التي كان السلطان يمنحها لهم دون
توريث والمعروفة باسم "التيمار" * ليعيشوا منها في فصل
الشتاء، فصل توقف القتال والغزو، ولكن عندما أصبحت هذه
التيمارات يمكن توارثها تحول هؤلاء المقاتلين إلى ارسقراطية
تمثلت سلوك الاقطاع الغربي واصبحت تفرض الضرائب
لصالحها دون ان يكون لديها تعليمات بذلك وقد وصل الامر إلى
حد ان السلطان كون جيشا من فلاحين الصرب لمحاربة
الانكشارية ووقف فسادها عندما استشعر خطر هؤلاء الجنو
الذين لا صنعة لهم خاصة بعد توقف الغزو على سلطته في
محاولة منه لارضاء رعاياه من الفلاحين والفقراء لكن بذور
الفكرة القومية والتحرر القومي كانت قد استقرت ونمت في قلوب
سكان المنطقة خاصة في ظل غياب قومية عثمانية عامة ووجود
أطراف خارجية تمديد العون والمساعدة لرعايا العثمانيو
وبالتالي تسربت الايديولوجيا القومية الثورية الأوروبية إلى
المنطقة لتتلا هذا الفراغ واستلهمت القوميات في المنطقة انتص

* لوحظ أن أراضي التيمار هذه لم تعرفها المنطقة العربية التي خضعت للإحت
العثماني الامر الذي يؤكد أن لهذه التيمارات وظيفة عسكرية قتالية حيث انتشرت فقط
مناطق التماس مع الأوروبيون.

القوميات الأوروبية وتحولت تلك النزعة القومية إلى قنابل موقوته لم تتورع الأطراف الخارجية خاصة روسيا والنمسا عن استخدامها لتأمين وتحقيق مصالحها حيث "أصبح باستطاعة القوى الأوروبية الاستيلاء على ولايات كاملة من الامبراطورية العثمانية ليس بسبب تفوقها العسكرى فحسب وإنما لان شعوب تلك الولايات لم تشعر بأى ارتباط خاص يشدها إلى استانبول" (١٥).

لم يعد الوجود التركى فى البلقان مستقرا بشكل دائم كما كان فى الماضى بعد أن أصبحت الامبراطورية النمساوية والروسية طرفا فاعلا فى البلقان اضافة الى الثورات الداخلية والتي كانت بمثابة السوس الذى ينخر فى عظام هى اصلا مهترئة. ومنذ ان تبنى القيصر اسكندر الثانى عام ١٨٥٥ الدعوة إلى الجامعة السلافية صار لروسيا نفوذها القوى داخل الصرب تحديدا. وفى عام ١٨٧٥ عند نهاية الحرب الروسية التركية حدثت ثورة فى البوسنة والهرسك ضد الاتراك ودخلت صربيا الحرب فى عام ١٨٧٦ دعما للبوسنة وبذلك تمكن البوسنيون من الاستقلال تماما عن الاتراك واصبحوا بذلك اول دولة فى البلقان تتنزع استقلالها من الاتراك برغم الاسلام الذى يجمع بين الاثنين. إلا أنه تم إلحاق البوسنة بالنمسا وفقا لما قرره مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ والذى شاركت فيه بريطانيا والمانيا وفرنسا وإيطاليا وتركيا وروسيا التى كانت قد استطاعت فى معاهدة سان ستيفانوس ان تتنزع من العثمانيين الاعتراف باستقلال ما يسمى بـ "بلغاريا الكبرى" وبلاد الصرب والجبل الاسود والبوسنة والهرسك ولكن بريطانيا والنمسا رفضتا هذه المعاهدة خوفا من ان تسيطر "بلغاريا الكبرى" هذه على البلقان والبوسفور وحتى لا تحقق روسيا مكاسب كبيرة فى المنطقة. وعليه تم الاعتراف

باستقلال بلغاريا المعروفة حاليا - يحتفل سكانها بذكرى معاهدة سان استيفانوس التي تذكرهم ببلغاريا الكبرى حتى الآن - ووضعت تحت الحماية الروسية بينما وضعت البوسنة تحت ادارة الامبراطورية النمساوية المجرية.

وهكذا وخلال القرن التاسع عشر كان الاتراك العثمانيون يخسرون معظم امبراطوريتهم في البلقان لكنهم في نفس الوقت كانوا قد تركوا اثرا جديدا في هذه المنطقة وهو الاسلام الذي اعتنقه سكان البوسنة والالبان وآخرين في باقي مناطق البلقان خاصة مقدونيا واصبح هناك عاملا جديدا ضمن عوامل الصراع الكثيرة في هذه المنطقة المتشابكة والتي كثيرا ما شهدت صراعات دينية ومذهبية كثيرة يختلط فيها القومي بالديني بالسياسي التوسعي. ومع ظهور تيار القومية داخل المجموعات السلافية صار الاسلام مرادف للقومية بالنسبة لسكان البوسنة وهو أمر سنرى أثره في بدايات القرن العشرين وحتى الآن ولكن قبل الوصول إلى هذه الفترة، كيف استطاع الاتراك العثمانيون احكام قبضتهم على هذه المنطقة طوال تلك الحقبة وما هي الاسباب التي جعلتهم يجتاحون هذه المنطقة بهذه السرعة ويخلفون فيها هذا الاثر ؟ وهل انتشر الاسلام في هذه المنطقة بالاكراه والاجبار ام ان هناك عوامل ساعدت على ذلك دون إكراه لأحد ؟.

الفصل الثالث

البيزنطيون والاتراك والبلقان

منذ ان تمت الاستعانة بالأتراك كمرتزقة فى أول الأمر لحساب أحد الأطراف البيزنطية المتصارعة على السلطة بدأ الاتراك يعرفون طريقهم إلى الاجزاء الغربية من آسيا الصغرى أولا ثم داخل أوروبا ثانيا وصار الاتراك يعملون لانفسهم بدلا من العمل لصالح الغير "وازداد الموقف سوءا بالنسبة للامبراطورية البيزنطية بعد وفاة الامبراطور اندرونيق الثالث سنة ١٣٤١ التى اعقبتها حروب اهلية داخلية لم يتردد خلالها المتنازعون من الاستعانة بالعثمانيين" (١٦) بعدها استطاع الاتراك الحصول على موقع داخل أوروبا وسرعان ما بدأوا فى الانطلاق والتحرر من السيطرة البيزنطية حيث اصبح بقاؤهم مرهونا بالتوسع الدائم "فمنذ سنة ١٣٥٠ تحركوا فى أوروبا كغزاة مستقلين وكمستوطنين واستقروا على الساحل الاوروبى لبحر مرمرة واقربهم الامبراطور البيزنطى على ممتلكاتهم الأوروبية ومن هذه المواقع المميزة انطلق العثمانيون لسد الفراغ الذى نتج عن اضمحلال النفوذ البيزنطى فى جنوب شرق اوربا" (١٧) وقد ساعد الاتراك على احكام سيطرتهم على هذه المنطقة عوامل عديدة منها كفاءة النظم الإدارية والقانونية التى ورثها الاتراك عن المسلاجقة والعباسيين هذا من ناحية ومن ناحية أخرى سوء الادارة البيزنطية والتى ترتب عليها تدهور اوضاع الفلاحين اضافة إلى الصراعات الداخلية على السلطة والخلافات المذهبية.

فعن احوال هذه المنطقة قبل الاجتياح العثمانى ينقل كارل بروكلمان عن الرحالة البندقى ماركو بولو ما سجله سنة ١٢٧٢ من أنه "وجد الاتراك لا يزالون بدوا رحلا يعنون بتربية الماشية فى حين كان اليونانيون والارمن دون غيرهم سادة المدن لكن سوء الادارة الذى اتصف به الملاك البيزنطيون الكبار قذف

بسكان الريف اليوناني إلى احضان الاتراك الذين اجتأحوا المدن في القرن الرابع عشر" (١٨) وهو أيضا ما عبر عنه بول كولز بقوله "ان فلاحى اوروى الشرقىة رحبوا فى البدائة بالعثمانيين كمخلصين لهم من الطبقات الحاكمة التى كانت تسومهم سوء العذاب.. فعادة ما كان السكان من الفلاحين سواء فى أوروىا الدانوىية أم فى مستعمرات البحر المتوسط ينظرون للعثمانيين كمحررين" (١٩).

وقد نقل كثير من المراقبون المعاصرون للامبراطورية العثمانية روايات دقيقة وحسنه عن أوضاع الفلاحين تؤكد تحسن أوضاعهم "فى البلقان كان الفلاحون المسيحيون فى ظل الحكم العثمانى أفضل حالا من الفلاحين المسيحيين خلف الدانوب فى الأراضى الهنغارىية أو الألمانية وفى أوقات الحروب كان الفلاحون المسيحيون ينحازون إلى جانب الاتراك ضد حكاهم وأسياهم النبلاء. وخير دليل على ذلك عبور أعداد كبيرة من الفلاحين المسيحيين نهر الدانوب إلى الضفة التركىية من النهر فى أعقاب الثورات الفلاحىية فى أوروىا الوسطى فى النصف الأول من القرن السادس عشر" (٢٠).

وهو أيضا ما عبر عنه بيرى اندرسون بقوله إن الفلاحين البلقانيين خلال القرنين ١٥، ١٦ وجدوا أنفسهم فجأة وقد تحرروا من الخضوع المهين والاستغلال الارستقراطى فى ظل حكاهم المسيحيين وانتقلوا إلى وضع اجتماعى كان فى معظم النواحي أكثر راحة وحرىة منه فى أى مكان آخر فى أوروىا الشرقىية آنذاك" (٢١).

بشكل عام هناك اتفاق بين كثير من الباحثين الذين تناولوا الفترة العثمانىية فى البلقان - تحديدا - على تحسن أوضاع الفلاحين فى ظل الحكم العثمانى. ولكن لماذا كان المزارعون فى

البلقان يرحبون بالعثمانيين وينظرون اليهم بوصفهم محررين إلى حد تقديم المساعدة لهم ؟ يمكن إرجاع ذلك إلى قسوة النبلاء والملوك الممثلين للاقطاع الاوروى فى استغلال الفلاحين الذين كانوا عبيدا للأرض مقارنة بالعثمانيين الذين كان نظامهم أقل تطورا وتبلورا وأقل انضباطا وعبودية على حد وصف بول كولز اضافة إلى ان اراضى التيمار وهى الأرض التى كان يتم منحها للمقاتلين - دون ان يتم توريثها للأبناء - لعيشوا منها اثناء الشتاء عندما يتوقف القتال (الغزو والسلب) كانوا يتركونها عندما يبدأ الغزو طوال الصيف للفلاحين الامر الذى كان يسمح لهؤلاء المزارعون بحرية التحرك والتصرف وهو أمر يفتقده المزارع الخاضع للنبلاء الغربيين حيث كانوا يعملون طوال العام كعبيد أرض ولا يسمح لهم بحرية الحركة والتنقل والتصرف اضافة إلى أن اصحاب التيمارات أو السباهيين كانوا تحت اشراف صارم من القسطنطينية (استانبول) يحدد لهم - كما يقول ستافريانوس - التزاماتهم تحديدا دقيقا كما يحدد حقوق وامتيازات الفلاحين المسيحيين أو الرعايا وكان الفلاحون يتمتعون بحقوق استخدام الأرض وراثيا (العمل فيها) ومنع تهجيرهم منها ما لم يفشلوا فى استثمارها طيلة ثلاث سنوات وفى ظل هذه الشروط ضمن الفلاحين الحماية من الابتزاز. ويضاف أيضا إلى هذه الاسباب التى أدت إلى الترحيب بالعثمانيين كثرة اللوائح الدينية " فقد كان البلقان منذ امد طويل أرضا خصبة للهرطقة اذ ترعرت فى انحاءه عقائد كعقائد البوجوميل وكان خلاف هذه العقائد مع سلطان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية عاملا مهما فى تيسير مهمة الفتوحات العثمانية فى القرن الخامس عشر" (٢٢).

هذه كلها عوامل ساعدت الاتراك على التوسع واحكام السيطرة على المنطقة يدعم كل هذا جهاز ادارى ذو كفاءة مفتوح أمام كل من يثبت جدارته وجيش قوى (الانكشارية) كالسيف المسلط على أوروبا يلتهم كل ما يصادفه أمامه. كل ذلك مع سيادة مبدأ التسامح الدينى مع الديانات الاخرى " فقد كان العثمانيون يطبقون مبدأ التسامح الدينى على نطاق واسع بينما كانت أوروبا تفتقد إلى ذلك" (٢٣).

وهناك تأكيد وشبه اجماع على ان سياسة الاتراك كانت قائمة على مبدأ التسامح - والذى يصفه البعض بالتسامح الجزئى - وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية للملل المختلفة طالما يؤدون الجزية ولا يهددون استقرار وامن الامبراطورية وتأكيذا على مبدأ التسامح هذا يقول بروكلمان "كان لبطريق الروم فى القسطنطينية من القوة والسلطان فى ظل العثمانيين اكثر مما كان له فى عهد بيزنطة وكانت السلطات العثمانية نفسها تسعى فى الاعياد الكبرى إلى ان تضمن للمسيحيين جوا من الهدوء وذلك بأن تعهد إلى حرس من الانكشارية فى المراقبة امام ابواب الكنائس" (٢٤) كذلك فقد اقر السلطان محمد الفاتح "الامتيازات والحصانات التى كانت الكنيسة الارثوذكسية تتمتع بها وزاد عليها مما جعل الكنيسة الارثوذكسية اكثر سعادة فى عهد الدولة العثمانية منها فى العهد البيزنطى" (٢٥) وقد كتب براغادين ممثل البندقية فى القسطنطينية عام ١٥٢٥ إلى بلاده يقول "لا أعرف دولة أسعد من هذه الدولة لأنها منطقة حباها الله بكل بركاته. أنها تمسك بدمام الحرب والسلم مع جميع الدول وهى غنية بالذهب والبشر والسفن والطاعة ولا يمكن مقارنتها بأية دولة أخرى، فليحفظ الله اعدل الابطاطرة" (نقلا عن ستافريانوس ص ١٢٢).

فى ظل هذا المناخ الجديد المتسم بالتسامح الدينى والذى حقق قدرا من الازدهار فى - بداياته على الاقل - يحق لنا ان نسأل كيف ولماذا دخل ابناء البلقان فى الإسلام يؤكد بروكلمان "ان الوضع الاجتماعى الممتاز الذى تمتع به العثمانيون فى البلقان قد اغرى كثيرا من رعاياهم باعتناق الاسلام فقد فعل ذلك الالبانيون وطبقة النبلاء والبشناق برمتها والتى تمكنت بفضل ذلك من الاحتفاظ بسلطانها القديم على ممتلكاتها" (٢٦) اضافة إلى ان فرصة الصعود والترقى داخل الجهاز الادارى العثمانى كانت مفتوحة امام كل من يثبت جدارته وكفاءته كما قلنا بصرف النظر عن الفئة الاجتماعية التى ينتمى اليها كما كان الحال فى أوروبا الاقطاعية "لقد كان الاسلام ينتشر ببطء فى البلقان اذ كان التحول للاسلام مرتبطا بالرغبة فى تحقيق وضعىة اجتماعية أو مزايا اقتصادية حيث كان يعفى معتنقوا الاسلام من ضرائب بعينها أو من الخدمة الحكومية" (٢٧).

وبالرغم من ان هذا الكلام يشير إلى ان الدخول للاسلام كان بغرض تحقيق مكاسب والحفاظ على الممتلكات الا ان نفس الكاتب يعود ويقول "ان احتمال التحول للاسلام فى المناطق النائية والجبلية كالبوسنة حيث تفشت العقيدة المانوية والبوذية هو احتمال سهل التصور.. كذلك ادت الحروب المتوالية فى البانيا وكريت إلى تحول ملحوظ من المسيحية إلى الاسلام" (٢٨) وهنا تصبح مقولة دخول الاسلام من اجل الحفاظ على الممتلكات مقولة ضعيفة خاصة وان الذين دخلوا الاسلام لم يكونوا جميعا ملاك ارض بل كانوا مواطنين يعانون من اضطهاد الملاك والكنيسة والاقرب إلى المنطقة هو ان التسامح الدينى الذى مارسه العثمانيون مقارنة بالتعصب الدينى الذى كان يمارسه الاوروبيون ادى إلى عدم النفور من الاسلام كدين.

وعندما يلتقى هذا الدين الجديد مع شعب يعتنق ديانة مختلفة عن الديانة المسيحية كالبوذية واليهودية ويتعرض للاضطهاد والتكفير بسبب هذا المعتقد المخالف، فإذا اخفنا إلى كل ذلك كون العقيدة البوذية تنكر الولادة الالهية للمسيح وترفض التثليث وتدعو إلى الصلاة فى أى مكان يصبح من المنطقى ان يعتنق سكان البوسنة الاسلام نتيجة لتقارب الاسلام فى ذلك مع عقيدتهم وهربا من القهر والاضطهاد الذى وقع عليهم فترة طويلة بوصفهم هراطقة حين كان يتم تجبيش الجيوش للقضاء عليهم وإلى جانب كل ذلك فان هذا الوضع الجديد سيحقق لهمم الحماية من التهديدات المحيطة بهم.

لقد عددنا بعض الاسباب التى سهلت على العثمانيون اجتياح البلقان واجزاء كثيرة من أوروبا واخضاعها لفترة طويلة دامت خمسة قرون يرى البعض ان النظام العثمانى فى القرون الثلاثة الاولى كان ارقى نظام شهدته البلقان واكثرها تطورا وتقدما عكس القرنين الآخرين فكيف تحقق ذلك ؟ كيف تحققت السيطرة العثمانية على المناطق التى تم فتحها ؟ لقد تحقق ذلك من وجهة نظر روبير مونتران (٢٩) بالاعتماد على وسيلتين وهما : أولا : ارساء اسس ودعائم جهاز ادارى قوى ثانيا : الاستيطان وحتى لا يتم ادخال الارتباك على الظروف القائمة عمد العثمانيون إلى السماح لبعض السادة المحليين بالاحتفاظ بممتلكاتهم وامتيازاتهم دون اجبارهم على اعتناق الاسلام، وهذا أيضا ينفى مقولة دخول الملاك إلى الإسلام حفاظا على أملاكهم، وقد وجدت أسماء مسيحية فى السجلات الحاوية لأسماء من تم منحهم اراضى "التيمار" وابقى العثمانيون على انماط الحياة والتقاليد والخبرات الخاصة للمناطق التى خضعت لسيطرتهم، ومن اهم الانماط التى حرصوا على الابقاء عليها - دون دفع

الاهالى لتبنى انماطهم الخاصة بهم كغزاة فاتحين - اللغة والدين وهوية المجموعات السكانية دون تهديد، ويعتقد مونتران ان هذه السياسة التى حافظت على اللغة والدين والهوية هى التى ساعدت على بروز القوميات فيما بعد وإلى اختفاء السلطنة العثمانية من البلقان فى القرن الـ ١٩ وهذا ايضا ما يؤكد عليه بول كولز بقوله "ان الجهاز الادارى العثمانى كان مؤثرا وفاعلا ويدعو إلى الاعجاب إلا أنه كان معزولا بسبب العامل الدينى الذى حال بينه وبين الاندماج الوثيق بالسكان، فیلما كان المذهب السنى يمنع اضطهاد الرعايا المسيحيين إلا أنه لم يكن يشجع أى خطة أو برنامج لتحويل الشعوب المسيحية تحولا جماعيا للإسلام" (٣٠). وبالرغم من ان هذا الكلام يؤكد على تسامح الاتراك ومحافظتهم على هوية المجموعات السكانية وعدم وضع خطة لتحويلهم إلى الاسلام إلا أنه فى نفس الوقت يعتبر ذلك نقطة الضعف فى الحكم العثمانى والتى ادت فى النهاية إلى تصاعد الروح القومية المضادة للاتراك - خاصة فى ظل غياب قومية تركية - حتى وصل الامر إلى اختفاء السلطنة العثمانية وزيادة الفجوة بين الرعايا المسيحيين والحكام المسلمين وذلك لانه "لم تكن هناك سياسة عثمانية فعالة لتحويل الناس للإسلام" (٣١). وبرغم ان هذا الكلام قد يتلج صدور البعض فإننا نؤكد ان البوسنيون خاضو معركة الاستقلال ضد الاتراك العثمانيين بالرغم من اعتناقهم الاسلام. فالاستعمار استعمار مهما كانت حسناته وديانته بل كان البوسنيون أول من استقل عن الاتراك فى البلقان لكنهم سقطوا تحت حماية النمسا وقفا لمخططات مؤتمر برلين.

وعموما وبرغم التأكيد على سيادة روح التسامح وصعود نجم كثير من المسيحيين فى الامبراطورية العثمانية ونيل بعضهم

الحقوق الكاملة وكذلك اليهود الذين لجأوا إلى الامبراطورية العثمانية مع بعض المسلمين الذين فروا من الاندلس بعد المذابح التي حدثت ضدهم لاجبارهم على اعتناق المسيحية حيث "نادرا ما كان العثمانيون استبداديين طغاة رغم قسوتهم وإهمالهم إذا ما قارناهم بأوروبا المعاصرة لهم حيث الهوس الدينى والتعصب المذهبى" (٣٢) فقد كان هناك "وجهة آخر للحكم العثمانى حيث كان الصبيان المسيحيون يجبرون على ترك عوائلهم والانخراط فى صفوف الجيش الادارى للدولة العثمانية" (٣٣). وذلك بعد تنشأتهم تنشئة إسلامية وتدريبهم للعمل بالمناصب القيادية والقتال.

وبرغم ما فى هذا النظام من قسوة ولا انسانية فإن بعض العائلات المسيحية التى كانت ضحية لهذا النظام المسمى "بالدفشمة" - كما يقول الكاتب - لم تكن تعتبره ظالما بل بالعكس اعتبروه وسيلة للوصول إلى النفوذ السياسى والتخفيف بعض الشئ من صعوبة العيش فى تلك الفترة. وهو ايضا ما يؤكد بول كولز "بأن هذه العملية لم تكن تلقى الاستياء والامتعاض الكافيين ويمكن فهم ذلك إذا قارنا ظروف الحياة الطبية وفرصها فى مؤسسات استانبول بحياة القرى فى البوسنة والبانيا". فقد كانت كما قلنا فرص الترقى لأعلى مفتوحة بلا حدود حتى أن بعض الحكام فى كثير من الاحيان كانوا أنصاف عبيد وأجلاب !!. ورغم كونهم عبيد السلطان فإنهم شغلوا معظم الإدارات الامبراطورية بما فى ذلك مركز الصدر الأعظم أى شكلوا ما عرف بسلطة الرقيق. ويرجع هذا الأمر إلى غياب الاستخدام الاقتصادى لعمل الرقيق فى الإنتاج الزراعى فى التقاليد الإسلامية السابقة والتى تأثر بها الأتراك فجعلوا الرقيق جنودا أو مظفون فى الإدارات. "أو المفارقة المثيرة الكامنة فى

قيام سلطة الرقيق - وهو أمر لم يكن من الممكن تصوره في ظل الاقطاع الأروبي - يمكن تفسيرها بشكل مفهوم ضمن مجموع النظام الاجتماعي للاستبداد العثماني. ذلك أنه ثمة ارتباط بنيوي بين غياب الملكية الخاصة في الأرض وبين بروز ملكية الدولة للرجال. ومن حيث النتيجة فعندما أصبح أى مفهوم قانونى دقيق للملكية معطلا في المضممار الرئيسى للثروة الأساسية في المجتمع تميعت وتحولت الدلالات التقليدية للحيازة في مضممار القوة البشرية في الوقت نفسه، وعندما أصبحت كافة الملكيات العقارية من حق الباب العالى لم يعد من الأمور المهيمنة أن يصبح البشر ملكا للسلطان. ولم يعد الرف يعرف بوصفه نقيضا لـ "الحرية" بل بمدى قرب الوصول إلى القيادة الامبراطورية". (٣٤) (أندرسون ص ١٥ - ١٦).

وبالرغم من ان منطقة البلقان بلغت في ظل النظام العثماني وبالأذات في القرون الاولى درجة عالية من الازدهار والانتعاش المادى والروحى بفضل كفاءة الجهاز الادارى وسيادة روح التسامح إلا أن الامبراطورية العثمانية وبالتالي مستعمراتها في البلقان نالت نصيبها من التدهور والانحطاط وهناك تفسيرات مختلفة لاسباب هذا التدهور فهناك من يرى ان الدولة العثمانية قامت باهمال اقتصاد البلقان اهمالا كاملا خلال فترة وجودها هناك فقد كانت اراضى الصرب والبوسنة غنية بالموارد الطبيعية حيث مناجم الحديد والقصدير والنحاس وبعد دخول العثمانيين اضمحل الاقتصاد فى المنطقة واهملت المناجم حتى اصبحت غير صالحة فيما بعد" (٣٥). ويرغم ان هذا القول يرجع التدهور إلى إهمال الدولة العثمانية ذاتها دون أن يفسر لنا أسباب هذا الأهمال وهل كان متعمدا ؟ فإن "أندرسون" يرجع التدهور بشكل عام إلى غياب الملكية الخاصة والذي أدى إلى وقف التطور

الاجتماعى بل وارتداده وعندما توقف التوسع الاقليمى ازداد الاستغلال بالنسبة للفلاحين وتحول الجنود الفائضون إلى قطاع طرق ودب الفساد فى الجهاز الإدارى، وبعد أن كانت المناصب يتم الوصول إليها على أساس الجدارة والكفاءة أصبحت تباع وتشترى لمن يدفع الثمن الأعلى ولأنه لم يكن يضمن البقاء كثيرا فى هذا المنصب فقد كان يركز على الحصول على أكبر قدر ممكن من الثروة قبل أن يتم اقصاءه لصالح آخر. ومن هذه اللحظة بدأت الامبراطورية رحلة التفكك ولم يكن كل هذا بعيدا عن تفوق أوروبا الغربية اقتصاديا وتكنولوجيا بسبب سيطرتهم على التجارة.

أما "ستافريانوس" فيرجع التدهور إلى تخلف الامبراطورية عن الغرب فى التقدم العلمى والتلاحم السياسى، وان تخلفهم فى العلوم أدى إلى تخلفهم فى التكنولوجيا والإنتاج وأن هذا التخلف كان مسؤولا عن هزائمها العسكرية وعن الاضطرابات الداخلية التى حلت بها وعلى حد قوله جلب لهم هذا الجهل المصائب بعد أن أصبحت الكليات العثمانية MEDRESSEHS تولى اهتمامها للاهوت وفلسفة التشريع والخطابه على حساب الفلك والرياضات والطب. وعاش الاتراك فى غفلة تامة عن المنجزات التى اتصف بها العصر إضافة إلى أن التجاور الاقليمى سهل ممارسة الضغوط السياسية الغربية على الامبراطورية العثمانية خاصة فى ظل نظام الترتيبات التجارية المعروف باسم "الامتيازات" حتى أن السفير الفرنسى فى القسطنطينية عام ١٧٨٨ وصف الامبراطورية العثمانية بأنها إحدى أغنى مستعمرات فرنسا !.

ويرى أحد المؤرخين الاتراك "أن انحطاط النظام الاقتصادى والاجتماعى الراسخ بدأ نتيجة للتطورات التى قامت

خارج المنطقة التي يسيطر عليها الباب العالي ولاسيما نتيجة لتأسيس "الاقتصاد الأطلسي" ذي الحيوية والقوة الهائلتين في أوروبا الغربية. فالنظام الاقتصادي للامبراطورية لم يتفسخ من خلال صدع كامن في بنيانه.. بل تفسخ بسبب التبدلات التاريخية العميقة التي قوضت توازنه وحكمت على مؤسساته بالتداعي بشكل لا سبيل لترميمه. فخلال النصف الثاني من القرن الـ ١٦ بدأت التجارة الأوروبية المدعومة بموسسة تجارة متينه والقائمة على تشجيع دول قومية قوية، تتحول إلى مهدد رئيسي للصناعة المحلية. وأصبح في نية التجارة الوطنية الأوروبية الجديدة أن تبيع أكبر كمية من السلع إلى الخارج في الوقت الذي تضيق وارداتها من أية منتوجات أخرى فلم تفتح بذلك أية سوق أمام الصناعات التصديرية العثمانية المحلية وتحولت التجارة المشرقية إلى تجارة استعمارية انتهت لتحويل تركيا إلى زبون للصناعة الأوروبية تقدم له المواد الأولية وتمنع عنه تصدير السلع" (٣٦) .

وبصرف النظر عن تقييم الدور التركي في البلقان، والتوسع في أسباب صعوده وأسباب أنهياره فإن الثابت هو أنه ارسى دعائم جهاز اداري فعال كان بالنسبة للاوربيين ارقى مما هم عليه في عصورهم الوسطى وكان مصدر اعجاب ودهشة لبعضهم وأنه حقق بعض المزايا للطبقات الدنيا التي استجارت من استغلال ملاك ونبله واقطاع اشد قسوة واكثر تنظيمًا بمن هم اقل. لكنه كذلك ترك خلفه نظم اجتماعية وسياسية اقل تطورًا وتنقصها الكفاءة واصبح في نهاية يحمّل نفس الامراض التي ادت إلى انهيار الامبراطورية البيزنطية وغيرها من الامبراطوريات حين دب الفساد وحين تكونت لديه ارسناتية - نتيجة للسماح بتوريث اراضي التيمار - أصبحت تمارس نفس

الفعل الذى تمارسه الارستقراطية الأوروبية من قهر واستغلال حتى ان السلطان العثمانى تحالف مع فلاحيين الصرب لمحاربة هؤلاء الانكشاريون. وفوق ذلك اصبح هناك عاملا جديدا فى صراعات المنطقة التى دارت فى السابق بين الارثوذكس والكاثوليك وهو الإسلام و اصبح الشعب السلافى الواحد ثلاثة شعوب تعتنق ثلاثة اديان وتم التعبير عن هذه الخلافات باشغال العنصرية والتعصب الدينى من قبل الاطراف الخارجية بغرض الحفاظ على كياناتهم وتحقيق اهدافهم ومصالحهم. فقد سمحت الامبراطورية النمساوية - على سبيل المثال - للصرب بالاقامة على حدودها داخل كرواتيا برغم العداء بين الاثنين بغرض استخدامهم كخط دفاعى فى مواجهة العثمانيين مع منحهم بعض الامتيازات مما اثار حفيظة الكروات تجاه الصرب حيث يعتبر الكروات انفسهم جنسا ارقى وامتدادا للحضارة الغربية عكس الصرب الجنس الادنى والمتوجة نحو الشرق ابتداء من بيزنطة قديما إلى موسكو حديثا.

واذا كنا قد توسعنا فى ذكر بعض الوقائع وقمنا بعرض للتاريخ العثمانى فى البلقان فذلك لان هذا مرتبط بذاك منذ ان بدأت الامبراطورية العثمانية رحلة الصعود حتى ابواب فينا إلى ان عادت مرة أخرى إلى حيث أتت وترتب على ذلك تكوين الكيان الذى اصبح فيما بعد يوغسلافيا أى سلاف الجنوب.

الفصل الرابع
من المملكة الصربية
إلى يوغسلافيا

بتراخي القبضة العثمانية في منطقة البلقان، ونمو النزعة القومية، بدأت شعوب المنطقة تصعيدهما المضاد للعثمانيين بغرض نيل الاستقلال. وشرعت في التنسيق فيما بينها لخوض المعركة الفاصلة ضد الاتراك وان كان هذا لم يمنع بعض الاطراف من السعي إلى تحقيق مآربهم الشخصية الخاصة واستعادة مجدهم القديم.

تحرك الصربيون الذين اعتبروا انفسهم مسؤولون عن تخليص الشعوب السلافية من الاتراك ومن الامبراطورية النمساوية المجرية أيضا. وعندما اصبح الصربيون يشكلون خطرا على النمسا، اعلنت النمسا ضم اقليم البوسنة نهائيا اليها عام ١٩٠٨ وتم قمع سكانها بوصفهم "اتراك". ومنذ هذه اللحظة اصبح البوسنيون يصفون انفسهم "بالمسلمين" تمييزا لهم عن الصرب والكروات وباقي الاقليات.

في عام ١٩١٢ بدأت حرب البلقان الاولى، وهي الحرب التي خاضها البلغار والصرب واليونانيون ضد الاتراك، وترتب عليها تراجع الاتراك عن المنطقة. وما ان تم ذلك إلا وانقلب حلفاء الامس على انفسهم، كل منهم يسعى إلى إقامة مشروعه القومي التوسعي الخاص به خاصة في مقدونيا التي يعتبرها كل طرف جزء من وطنه القومي الكبير. وعلى أثر ذلك بدأت حرب البلقان الثانية ١٩١٣ وهي حرب اصطدم فيها الجميع ببعضهم، وبالامبراطوريات الموجودة في المنطقة والباحثة عن حلفاء لأخذ نصيبها من تركه الرجل المريض. ومن هنا بدأت لعبة جني المكاسب ومأساة الحلول الملفقة لمشاكل البلقان والتي لا زالت سائدة حتى الآن.

ولأنها حلول ملفقة ووقتيّة، ولأن جذور الخلافات موجودة وكامنة فسرعان ما تفجرت شرارة الحرب العالمية

الاولى فى سراييفو عقب مصرع ولى عهد النمسا على يد الشاب الصربى "غافريلو برينسيب". وترتب على هذه الحرب عندما وصلت إلى نهايتها انهيار الامبراطورية العثمانية تماما وتقسيم الامبراطورية النمساوية المجرية إلى النمسا والمجر واستقلال اليونان ورومانيا وبلغاريا والباييا، وانتعاش الحلم الصربى فى اتجاه وطنهم القومى الكبير ايضا وبدعم من بريطانيا وفرنسا تم تأسيس المملكة الصربية الكرواتية مع نهاية الحرب العالمية الاولى، وهى المملكة التى ضمت صربيا والجبل الاسود وسلوفينيا وكرواتيا والبوسنة.

بالرغم من أن إعلان تأسيس هذه المملكة أقر أنها مملكة دستورية برلمانية تساوى بين القوميات الثلاث، وتضمن حرية ممارسة الشعائر الدينية. فإن تطبيق هذا على أرض الواقع كان مختلفا حيث كانت الغلبة والسيادة للصربيين، ثم للكروات والاغفال التام لمجمل الحقوق والتطلعات القومية لباقي الاقليات داخل كيان المملكة . مع مصادرة اوقاف واملاك المسلمين وتشجيع الهجرة والاستيطان فى أراضيها.

بلغت هذه المملكة ذروتها فى عهد الملك اسكندر، ولكن سرعان ما بدأت معركة تصفية الحسابات القديمة وبرزت التناقضات بين قوميات المملكة إلى السطح من جديد. وتزايدت الحركات المناهضة للصرب بين صفوف الكروات والبوسنيين، وأخذ هذا العداء منحى عنيفا فى كثير من الاحيان - كالعادة - ووصل الأمر إلى حد اطلاق الرصاص على النواب الكروات فى أحد نقاشات البرلمان عام ٢٨. بعدها فرض الملك ديكتاتورية مباشرة على الكروات الأمر الذى رفع من حدة العداء والتناقض بينهما وانتهى الأمر باغتيال الملك عام ٣٤.

استمرت الاضطرابات حتى عام ٣٩، حيث تم إعادة تنظيم المملكة وترسيم الحدود وحصل الكروات بمقتضى ذلك على أراض جديدة. ومع اجتياح هتلر المنطقة عام ١٩٤١ حصل الكروات الذين تربطهم صلة وعلاقات بالالمان، على دعم كبير من النازيين وتشكلت منظمة اوستاش الكرواتية النازية، والتي مارست ابشع انواع القتل والارهاب ضد الصربيين حلفاء انجلترا وفرنسا والذين ، شكلوا بدورهم منظمة فاشية صربية هي الجيتاك. وبين هاتين المنظمتين الارهابيتين، اللتين شنتا افظع وايشع حروب الابداء والتطهير ضد بعضهما، كانت اليوسنة الخاضعة للحكم النازى ضحية الاثنين معا، حيث استولى الصربيون والكروات على اراضيها، وقد دفعهم هذا إلى تشكيل "منظمة الشباب المسلم" لحماية انفسهم من اعتداءات الصرب والكروات، مثلما شكلوا فى الماضى فى ظل الاحتلال النمساوى "المنظمة القومية الإسلامية" والتي خاضت كفاح مسلح ضد الاحتلال النمساوى.

عموما وفى ظل هذا الصراع وهذه الحرب التى حصدت الكثير والكثير من سكان هذه المنطقة، تمكن تيتو من تشكيل حركة الانصار الشيوعية التى خاضت الحرب ضد الالمان لتحرير البلاد من النازية والفاشية. والتف حوله ابناء الاقليات الضائعون بين الصرب والكروات، خاصة اليوسنيين الذين كانتوا دعامة اساسية لقوات تيتو ، والذي كان شعاره هو المساواة بين جميع الشعوب والاقليات. وهو أمر يتفق مع الاطروحات الماركسية التى اعلنت حق تقرير المصير. وبهذا تمكن تيتو من اعادة تكوين يوغسلافيا الاتحادية عام ١٩٤٦ بشكلها المعروف إلى أن تفجرت أزمتها الحالية.

تيتو ويوغسلافيا الاتحادية

تكونت الجمهورية اليوغسلافية الاتحادية الشعبية - تم استبدال كلمة شعبية بكلمة اشتراكية عام ٦٣ - وفقا للنتائج النهائية للحرب العالمية الثانية، حيث إنحدرت النازية الألمانية والفاشية. الإيطالية وقد لعب الجيش الأحمر السوفيتي دورا في ذلك، ترتب عليه سيطرة السوفيت على أوروبا الشرقية واصبح على أرض أوروبا نظامان مختلفان شكلا توجهاتهم التالية فيما بعد.

تميزت الجمهورية اليوغسلافية، من البداية عن باقي دول أوروبا الشرقية، بعدم مشاركة الجيش الأحمر في تحريرها أو دخولها إلا بعد أن تقابل تيتو وستالين، وأشترط عليه تيتو عدم تدخل الجيش الأحمر في إدارة الشؤون الداخلية، وترك البلاد متى انتهت الضرورة العسكرية. وقد وصل الخلاف بين تيتو وستالين إلى حد طرد تيتو من الكومنترن، خاصة عندما أقترح تيتو توسيع دائرة "سلاف الجنوب" بضم بلغاريا وألبانيا إلى الاتحاد اليوغسلافي. عندها استشعر ستالين أن تيتو يزاحم النفوذ السوفيتي في الكتلة الشيوعية.

على هذا الأساس تميزت يوغسلافيا بقدر من الاستقلالية، جعلها إلى حد ما تحظى برضاء ومغازلة الغرب فيما بعد باعتبارها خارج نفوذ الاتحاد السوفيتي، وخاصة بعد تشكيل مجموعة عدم الانحياز تكونت الجمهورية اليوغسلافية الاتحادية من ست جمهوريات معترف بها كأمم يجمعها اتحاد فيدرالى وهى :

الجمهورية	العاصمة	عدد السكان بالمليون لآخر احصائيات متوفره
١ - صربيا	بلغراد	٨,٧٥٤
٢ - كرواتيا	زغرب	٥,٦٦٧
٣ - البوسنة والهرسك	سراييفو	٥,٤٢٩
٤ - مقدونيا	سكوبجي	٢,٥٦٠
٥ - سلوفينيا	لوبليانا	٢,١١٥
٦ - الجبل الاسود	تيتوجراد	٠,٨٠٠

إلى جانب الجمهوريات الست، أضيف إلى هذا الاتحاد إقليم كوسوفو وعاصمته "بريستينا" ذو الأغلبية الالبانية المسلمة (٩٠٪) . وقويبودينا وعاصمته "توفي صاد" ذو أغلبية مجرية وهي زوائد نتجت من تقسيم هذه المنطقة إلى دول عقب الحربين الأولى والثانية . وتم منح هذين الاقليمين حق الحكم الذاتى وفقا للدستور الاتحادى، الذى صيغ بعناية ودقة ليجمع هذا الخليط الذى يضم ٦ أمم وعشر قوميات وأعراق وأجناس أخرى.

من بداية التأسيس والتجميع لتلك الجمهوريات، كان تيتو يدرك جيدا عمق وطبيعة المشاكل التى ستواجهه داخل هذا الكيان ، أولها بالطبع الصراعات القومية والعرقية والكرامية المخزونة من جراء الصراعات السابقة. وثانيها التفاوت الاقتصادى والحضارى والثقافى بين هذه الجمهوريات، وثالثها رغبة الصرب التوسعية والعدائية للبوسنة حيث ينظر الصرب إلى شعبها بوصفهم خونة دخلوا دين الاتراك ! وربما لهذا السبب حرص تيتو على إنشاء وتجميع جمهورية البوسنة والهرسك، بعد أن كانت مقسمة بين الصرب والكروات ، ليحد من ويقطع الطريق أمام الرغبات التوسعية لكل منهما. وأيضا لتكون هذه الجمهورية منطقة عازلة تفصل بين الكروات والصرب ، وهو أيضا نفس السبب الذى دفعه إلى تأسيس جمهورية مقدونيا

والاعتراف بلغتها كلغة رسمية للدولة. لقطع الطريق أمام الصرب ودول أخرى لها مطالب تاريخية في هذه المنطقة كاليونان إضافة إلى منح إقليم كوسوفو وفويفودينا حق الحكم الذاتي كما أوضحنا استطاع تيتو بفضل حنكته ومهارته السياسية وشخصيته القيادية الطاغية والجامعة، والقادرة على ضبط المتناقضات الداخلية واستخدامها أحيانا أن يحافظ على هذا الكيان وأن يضبط الوضع العام داخله. خاصة وأن شعاره الذي ضبط به المعادلة اليوغسلافية هو "لكي تكون يوغسلافيا قوية لابد وأن تكون صربيا ضعيفة ادراكا منه - وهو الكرواتى - للدور الصربى فى تكوين الاطار الجغرافى ليوغسلافيا ومطامعها التوسعية ورغبتها فى السيطرة على شعوب المنطقة كانت اداة تيتو فى ضبط هذا الكيان المتناقض والمتنافر، اعتماده صيغة الدولة الفيدرالية مع التمتع بالحكم الذاتى وصيانة الحقوق الثقافية والقومية دون التوسع فى تأكيدها. خاصة بالنسبة للمسلمين الذين حظوا فى عهده بقدر اعلى من الامان والاستقرار والمساواة بغيرهم من القوميات، واحتلوا مراكز سياسية هامة، ربما لانه كان يدرك ان استقرار البوسنة هام بالنسبة لاستقرار يوغسلافيا - حيث تمثل البوسنة نموذج مصغر للمجتمع اليوغسلافى فى تعقيداته القومية - لكن دون الاقرار بحقوقهم القومية حتى لا يثير ذلك حفيظه الصربيين، الذى تعد تيتو تحجيم دورهم والحد من صعودهم فى اجهزة الدولة الحساسة. ورغم الالادة بقدرة تيتو على قيادة يوغسلافيا وتوحيدها وضبط ايقاعها الداخلى، فقد كانت هناك بعض المثالب التى تؤخذ عليه الآن. منها نظام الخدمة العسكرية الذى كان يقضى بأن يؤدى ابناء أية جمهورية الخدمة العسكرية فى جمهورية أخرى. وتعود اسباب هذه السياسات إلى رغبة تيتو فى صهر وتوحيد الجميع فى إطار

يوغسلافيا الموحدة، إلا أن هذا الامر كان يخلق حالات من الاحتكاك والتوتر فى بعض الاحيان، نتيجة للمشاعر القومية الخاصة والتي لم تكن قد اختفت وانصهرت بعد.

كذلك اتبع تيتو سياسة النقل والتوطين وهو ما كان يسمى بـ "الهندسة الاجتماعية" داخل الجمهوريات، فقام بنقل عمال من صربيا واحيانا من كرواتيا للعمل فى المصانع التى اقامها فى البوسنة والهرسك، تحت شعار ان اهل البوسنة مزارعون. وهو الامر الذى ترتب عليه وجود اقلية صربية كبيرة وكرواتية داخل البوسنة. كذلك اهتم تيتو بإقامة الصناعة الحديثة فى كرواتيا وسلوفينيا دون بقية المناطق الأخرى، مما أدى إلى ظهور نتائج سيئة تمثلت فى وجود تفاوت اقتصادى واجتماعى بين الجمهوريات، أدى إلى شعور هذه الجمهوريات بالخبن خاصة سلوفينيا وكرواتيا الأعلى دخلا. وعليه فشلت عملية الانصهار والتوحيد القومى داخل يوغسلافيا نتيجة اتباع هذه السياسة. وقد ساعد على هذا الفشل بالطبع تخلفها الاقتصادى القديم وفشلها فى تحقيق التنمية الرأسمالية مثل أوروبا الغربية. و "نتيجة لهذا التخلف الاقتصادى وتأخر النمو الرأسمالى تأخر تكوينها كأمة وفشل السلاف فى تشكيل أمة واحدة بينما نجح الشعب الالماني بالرغم من تنوع انتماءاته الدينية ايضا" (٣٧).

من هذه الخلفية التاريخية، التى توضح وتؤكد خصوصية منطقة البلقان بشكل عام ويوغسلافيا بشكل خاص، كمجتمع موزايك يتشابك ويتقاطع فيه العرقى مع الدينى. فى ظل وجود اطراف خارجية تؤثر دائما على مسار وتطور هذه المنطقة يمكننا ان نصل إلى عدة نتائج هى :

١- ان منطقة البلقان - ومنها يوغسلافيا - ارتبطت طيلة تاريخها القديم والحديث بالامبراطوريات فى هذه المنطقة

وان هذا الارتباط كانت له نتائج وانعكاساته على الاوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الداخلية الايجابية احيانا والسلبية في أحيان كثيرة.

٢- ان هذه المنطقة كانت تستقر وتهدأ وتتعدم فيها الحروب الاهلية طالما أن الامبراطورية المسيطرة عليها قوية ومتماسكة وفي حالة صعود وازدهار، وبانهيار الامبراطورية وتفككها ينتهى الاستقرار وتسقط المنطقة في حروبها الاهلية الدموية. حدث ذلك عندما انقسمت الامبراطورية البيزنطية إلى امبراطورية شرقية واخرى غربية، ثم اسقرت عندما احكمت الامبراطورية العثمانية قبضتها على المنطقة إلى ان ضعفت وبدأت الامبراطورية الروسية والنمساوية في الدخول إلى المنطقة لتحل محل الرجل المريض. واستمرت هذه المنطقة في مستنقع الحروب حتى تمكن تيتو من تأسيس النظام الشامل القوى والمسيطر والقادر على توحيد وضبط الكيان اليوغسلافي، وبرحيله بدأ الضعف والتفكك وسقطت يوغسلافيا في بحر الحروب الاهلية مرة أخرى وكان للعامل الخارجى اثره كما سنرى.

٣- كذلك تؤكد الخلفية التاريخية السابقة ان محاولة أى طرف فرض هيمنته وسيطرته على الطرف الآخر، والتوسع على حسابيه أو نفيه تماما والقضاء عليه، هي محاولة محكوم عليها بالفشل بل تفود المنطقة إلى كارثة ومذابح لا يلجو ملها احد.

٤- ان هذه المنطقة شهدت صراعات دينية ومذهبية قبل دخول الاتراك اليها. سواء بغرض سياسى أو عنصرى أو خدمة لأطراف أخرى والامر الجديد فيما بعد هو دخول الاسلام طرفا.

فى هذه الصراعات بعد أن خلف وراءه رافدا جديدا ثقافيا وحضاريا ودينيا.

٥- ان كثرة الصراعات فى المنطقة وارتباط ذلك بقوى خارجية أدى إلى تقسيم الشعب السلافي الواحد إلى ثلاث شعوب، وصار الدين مرادفا للقومية خاصة بالنسبة للمسلمين واصبح التمايز بين هذه الشعوب تمايزا ثقافيا وحضاريا ودينيا من السهل معالجته فى إطار التعددية الحقيقية غير العنصرية والتطبيق الفعلى لحرية الفكر والعقيدة.

٦- ان الحديث عن صراع عرقى فحسب دون الأخذ فى الاعتبار الاختلافات الدينية والحضارية والثقافية والتطلعات السياسية التوسعية هو امر يجانبه الصواب تماما. بالذات وقد اوضحنا هنا ان الشعوب الثلاثة التى تقطن هذه المنطقة تتحدر من عرق واحد، لكنهم وعلى مر التاريخ إكتسبو سمات حضارية وثقافية ودينية مختلفة *. وبالتالى تبلورت وتشكلت ملامح شخصية قومية لها حق التعبير عن نفسها وحق الاستقلال إن ارادت. ولذا فمن حقنا ان نعتبر ان تفسير الصراع على أنه صراع عرقى فحسب هو تجاهل لعوامل أخرى، كما أنه يقدم تبريرا للصراع الدائر هناك ويمنحه نوعا من المشروعية وكأن الصراع العرقى هو أمر مقبول، علما بأنه فى حالة الصراع العرقى وحتى لا تتم ابادة عرق من قبل عرق آخر، يصبح حق تقرير المصير هو الحل الأمثل لتجنب هذا الصراع. وبالتالى يصبح حق الاستقلال هو الحق الذى يجب ان يتحقق اذا ما كان

* هناك من يقول بان الكروات من أصول فارسية (أرييه) وأن كلمة كرواتى قريبة من كلمة كردي كما وأن السلوفان يعتبرون أنفسهم جيرمان ولكن حتى لو أن هذا صحيح فإنه لا يبرر الحرب كحرب عرقية ولا يقلل من تمايزهم كقومية بل يؤكد التمايز.

التعايش مستحيلا. كما وأن الحديث عن مسلمى البوسنة بوصفهم بقايا الامبراطورية العثمانية يوحى بانهم دخلاء ومستعمرون لهذه المنطقة، وهو أمر غير صحيح يصل إلى حد مشاركة الصرب فى دعاواهم الفاشية والعنصرية الأولى اضافة إلى انه يتجاهل الحقائق التاريخية التى تؤكد قيام سكان البوسنة بثورتين تحريريتين. فى عام ١٨٣٠ تم قمعها والاخرى فى ١٨٧٥ مما يؤكد وجود سمات قومية خاصة بهم مختلفة عن السمات الخاصة بالأتراك بصرف النظر عن الدين المشترك بين الاثنين.

٧- إن القوى الخارجية المتنافسة على هذه المنطقة، هى التى تلعب الدور الاساسى فى تفجيرها من الداخل عندما تكون لها مصلحة فى ذلك، يساعدها على ذلك التركيب المعقد لهذه المنطقة . وهى ايضا - أى الدول الخارجية - التى تستطيع ان تلعب دورا فى تهدئتها واعادة الاستقرار إليها اذا كانت لها مصلحة ايضا فى ذلك.

الفصل الخامس

أسباب تفجر الصراع

بعد هذه الاطلالة على واقع البلقان عموما، يمكننا امعان النظر فى يوغسلافيا السابقة اكثر - اضافة الى ما ذكر - لنحدد الاسباب التى ادت الى دخولها هذا النفق المظلم المرير. خاصة وانها نموذج ووسيلة ايضا يمكن ان نعرف منها مصير البلقان الملىء بالعديد من الالغام القابلة للتفجير.

فالصراع فى يوغسلافيا القديمة ما كان من الممكن ان يتفجر بهذه القوة والحدة والعنف الدموى لولا تفاعل العديد من الاسباب الداخلية والخارجية. ولولا الميراث الدامى المسيطر على ذاكرة ابنائها ، للاستخدام دائما، عندما تكون الظروف مواتية وهو ما حدث على المستويين الخارجى والداخلى.

العوامل الداخلية من الناحية السياسية :

يعتبر غياب تيتو بما يشكله من قوة وقدرة ومهارة على ضبط الاوضاع الداخلية والحد من تناقضاتها. وقدرته على خلق نظام ايديولوجى وسياسى خاص بهذه المنطقة (التسير الذاتى - واللامركزية) التى كان يعرف ظروفها جيدا، عاملا هاما ومؤثرا فى تفجير الاوضاع. خاصة وأنه كان الطرف الوحيد القادر على امساك خيوط المعادلة اليوغسلافية جيدا فى يده - أو تعتمد ذلك - وتلك عملية، بقدر ما ساعدته على ضبط الامور كانت سببا فى تفجيرها بعد رحيله. فقد ترك فراغا لم يستطع احد بعده ان يشغله، مما اصاب النظام السياسى القائم بسالعجز والارتباك وفقدان القدرة على التحرك. خاصة فى ظل الأزمة الاقتصادية والتغييرات الدولية التى اعقبت وفاته ٦٠ كان تيتو من خلال الدستور الذى قام بوضعه قد أقر تكوين مجلس رئاسى يضم ممثلين عن الجمهوريات الست، والاقليمين الذين يتمتعان بالحكم الذاتى، على أن يتم التناوب على رئاسة المجلس بين هؤلاء

الممثلين واشترط أن تكون قرارات المجلس بالاجماع، معتبرا أن هذه الصيغة هي التى ستحقق التوازن بين القوميات وتمنع سيطرة قومية على أخرى خاصة القومية الصربية.

عقب وفاته فى يناير ١٩٨٠ استمرت آلية القيادة الجماعية بشكل طبيعى فى ظل التماسك الذى يحدث عادة عقب وفاة قيادة بهذا الوزن والتقل، خاصة عندما تواجهها أزمة سريعة كتلك التى حدثت فى مارس ١٩٨١ حين تمرد ألبان كوسوفو تحت وطأة الأزمة الاقتصادية التى تعاني منها البلاد عامة وكوسوفو خاصة.

فى تلك الأزمة عبر ألبان كوسوفو عن رغبتهم فى الانفصال، بل دعى بعضهم إلى ضم ألبان الجبل الأسود إلى جمهوريتهم المأمولة، والتى يرغبون فى ضمها إلى جمهورية ألبانيا الأم. كانت هذه أول أرهاصه بتفكك يوغسلافيا وأول محنه يواجهها المجلس الرئاسى وتم قمعها بعنف والارجح أن هذه الأزمة أدت إلى تماسك المجلس وتأجيل تناقضاته إلى أن تفجر وحدثت أول أزمة دستورية عندما رفضت صربيا والجبل الأسود انتقال الرئاسة إلى الممثل الكرواتى وفشل المجلس فى الوصول إلى الاجماع بعد أن رحل الرجل القادر على إحداث الاجماع.

مع تصاعد حدة الأزمة الاقتصادية، وارتفاع نسبة التضخم وانخفاض قيمة العملة وتفاوت نسب الدخول نتيجة للتفاوت الاقتصادي بين الجمهوريات وجدت النعرات القومية المتطرفة وقودها الذى تتغذى عليه، واصبح لسان حال البعض "إنج سعد فقد هلك سعيد" وأزداد الأمر تعقيدا بعد أن بدأت عصابة الشيوعيين ذاتها السير فى هذا الاتجاه القومى بحثا عن حلفاء، واستثمرا لتلك النزعة والتى أزداد لهيبها المتفقون الصرب.

وسرعان ما بدأت القيادات الصربية الشاعرة بالغبن فى استخدام النعرة القومية المتعصبة كايديولوجيا بديلة، تملأ بها الفراغ الناتج عن انهيار الايديولوجية الشيوعية. وبدأت فى احياء المشاعر القومية الصربية، ولحل مسيرة "تعش" القائد الصربى التى سبق ذكرها تؤكد ذلك، هذا بالاضافة إلى الوثيقة التى اقترتها اكااديمية العلوم والفنون الصربية عن الاوضاع القائمة فى يوغسلافيا وموقف الصرب منها، وهى الوثيقة التى صدق عليها وتبناها ميلوسيفتش منذ ٧ سنوات "حيث انتقدت هذه الوثيقة تيتو - الكرواتى - وشعاره كلما كانت صربيا ضعيفة زادت يوغسلافيا قوة، واعتبرت ان هذا النظام ادى إلى تقدم كبير فى كرواتيا وسلوفينيا على حساب الاجزاء الاخرى وخاصة صربيا التى تعتمد تيتو اضعافها " (٣٨).

وكما نرى فإن هدف هذه الوثيقة هو ايقاظ الروح القومية الصربية وذلك من خلال التأكيد على تعتمد تيتو اضعاف صربيا، وهو ما أدى إلى تغذية وبروز روح عدائية ومتعصبة وعنصرية داخل الصرب تجاه الجمهوريات الأخرى وتزايد المخاوف داخل الجمهوريات الاخرى من الصرب. خاصة وان الوثيقة تحدثت عن اوضاع الصربيين فى كرواتيا والبوسنة. وكرد فعل بدأت روح الاستقلال تنمو وتزايد داخل الجمهوريات خوفا من ان يجتاحهم المد الصربى المتطرف. ومما زاد الخوف من الهيمنة الصربية القادمة أنه فى الوقت الذى بدأت تتصاعد فيه روح الاستقلال داخل بعض الجمهوريات مع تصاعد المطالبة بالتعددية الحزبية وخاصة بعد انهيار أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتى، الغت القيادة الصربية الاستقلال الذاتى الذى كان يتمتع به اقليم كوسوفو وفويفودينا بموجب دستور ٧٤ وهو اجراء يمكن وصفه بأنه بمثابة بالون اختبار لباقي الجمهوريات ". وفى ظل هذا

الوضع كان من الطبيعي ان تتصاعد المشاعر القومية المماثلة بين القوميات الاخرى دفاعا عن النفس مما دفع الكروات والسلوفان والمسلمين إلى اختيار طريق الاستقلال كأجراء وقائي في مواجهة الهيمنة الصربية المتنامية" (٣٩).

في ظل هذا المناخ طالبت سلوفينا بتحويل الحزب إلى تحالف بين الروابط الفرعية. ونتيجة لرفض الصرب انسحبت رابطة سلوفينيا ثم كرواتيا وقاما بعمل انتخابات مستقلة داخل كل جمهورية (ابريل، مايو ١٩٩٠) ولم يكن أمام البوسنة إلا أن تسير في نفس الطريق فيما بعد. واعادت صربيا تشكيل حزباً جديداً في الاسم حيث تحول اسم الحزب من الحزب الشيوعي الصربي إلى الحزب الاشتراكي الصربي. وبدأت عملية تشكيل الأحزاب في الجمهوريات حتى وصل عددها إلى ٢٥٠ حزب، وقد أسفرت نتائج الانتخابات التي تمت في ظل التعددية عن فوز الأحزاب القومية في كرواتيا وسلوفينيا ومقدونيا والبوسنة والهرسك بينما فاز الشيوعيون - القوميون أيضاً - في صربيا والجبل الأسود.

كان الشكل العام في البداية يوحي بأن عملية التغيير من الممكن ان تسير بشكل سلمي وهادئ - عكس أوروبا الشرقية - حيث تم اقرار التعددية وتم تشكيل الأحزاب. أو بمعنى أدق تم تفتيت الحزب الشيوعي القديم إلى أحزاب جديدة بأسماء جديدة وبأنفس القيادات الشيوعية المحلية، والتي انتقلت بخفة وبسر من الشيوعية إلى القومية الفاشية باستثناء البوسنة ورئيسها الذي أمضى فترة من حياته سجينا في ظل النظام السابق.

ولكن القيادات الجديدة / القديمة والمتنافسة والتي تشكل بقايا الطبقة الحاكمة السابقة في يوغسلافيا لم تجد وسيلة " لكى تكتسب الشرعية الا ان تستخدم القومية. وبدأت سلوفينيا وكرواتيا

يسعيان للتخلص من الفيدرالية التي فرضت عليهما دعم الجزء الجنوبي (٤٠) وبالطبع رفض العرب ذلك وتزعمت جمهورية صربيا والجبل الأسود اللذان يعتبران أنفسهما ورثة يوغسلافيا القديمة الدعوة إلى بقاء الصيغة الاتحادية الفيدرالية وأيد الجيش الاتحادي أيضا هذه الصيغة.

كان الأصرار الصربي على بقاء الصيغة الفيدرالية كما هي في ظل تصاعد القومية الصربية وزعامتها للاتحاد يعنى وقوع باقى القوميات تحت هيمنتها وبالتالي تحقيق حلم صربيا الكبرى فى مواجهة هذه الصيغة طرحت كرواتيا وسلوفينيا صيغة الكونفدرالية، والتي يترتب عليها تفكيك الفيدرالية القديمة. ثم طورت سلوفينيا الاقتراح إلى تكوين كيانين يضم كل منهما - طوعا - الدول الراغبة فى الفيدرالية والاخر الدول الراغبة فى الكونفدرالية، على ألا يتم أى تعديل فى الحدود الخاصة بكل جمهورية. وهذا يعنى فتح الطريق أمامها للاستقلال عن صربيا. أما البوسنة فقد طرحت حلا وسطيا يقضى باستقلال الجمهوريات الست فى ظل اتحاد كونفدرالى، مع الاعتراف بخصوصية وحدود كل كيان وسيادته على أرضه وأن يكون لكل جمهورية حقها فى رسم سياستها الخارجية، وإقامة تمثيل دبلوماسى خاص بها مع قيام سوق مشتركة بين الجمهوريات وبالطبع كان الطرح البوسنى هو الأقرب جدا إلى مصالحها. فالاستمرار فى الكونفدرالية بهذه الشروط يعنى الحفاظ على كيانها كدولة، أما الصيغتين السابقتين فأحلاهما مر، لأنها نجت من صربيا سقطت فى كرواتيا.

والحقيقة أن هذا الطرح كان هو الطرح الأمثل لأنقاذ يوغسلافيا من محنتها وتجنب القتال. ولكن تعارض هذا الطرح

مع مشروع صربيا التوسعي ومشروع كرواتيا وسلوفينيا
الانفصالي حال دون الموافقة عليه.

مع عدم الوصول إلى حل يرضى جميع الأطراف بدأت
معركة الاستفتاءات حول الاستقلال ولان سلوفينيا ليس لديها
أقلية صربية ذات وزن، فقد شرعت في اتخاذ أول خطوة عملية
في اتجاه الاستقلال والانفصال حين أوقفت العمل بالقوانين
الاتحادية واعطاء الأولوية للقوانين المحلية الخاصة بها، بما
يعنيه ذلك من إقامة مؤسساتها الخاصة. وتبعها في هذا الاتجاه
كرواتيا، وهنا ظهر وبرز دور المؤسسة العسكرية والجيش
الفيدرالي خاصة في ظل عجز مجلس الرئاسة الشاغر فيه
منصب الرئيس عن تجاوز الأزمة أو حتى في ظل الممثل
(الصربي). وعلى ما يبدو كان الهدف من إبقاء المنصب شاغرا
حينما تم الاعتراض على الممثل الكرواتي هو ألا يصبح هذا
الكرواتي قائدا عاما للجيش وفقا لنص الدستور وبالتالي تصبح يد
المؤسسة العسكرية والجيش حرة طليعة وهو ما حدث فعلا،
خاصة وأن الجيش يتمتع بميزات خاصة شعر أنه سيفقدّها إذا
ما تم الانفصال والتفكك. وبذلك تمت المواجهة الدامية بين
الجيش الاتحادي وسلوفينيا ولكن سرعان من تم احتواء الموقف.
وكذلك بين الجيش وكرواتيا والتي وصلت زروتها بتدمير مدينة
فوكوفار الكرواتية وحدث التدخل الأوروبي أيضا لوقف تلك
الحرب. ولكن مع البوسنة كان الوضع مختلفا وكان نصيبها من
العنف أفظع وأشد حيث رفض الجيش الاتحادي الانسحاب حتى
لا يكرر الخطأ السابق حين انسحب من سلوفينيا وكرواتيا خاصة
وأنه لاحظ عدم الاهتمام الغربي بالبوسنة عكس اهتمامه السابق
بكرواتيا وسلوفينيا.

العوامل الداخلية من الناحية الاقتصادية :

فى ظل الفيدرالية والإدارة الذاتية التى تمنح الجمهوريات والاقاليم نوعا ما من الاستقلالية، وهو المشروع الذى تبناه تيتو. تضاعفت الفوارق الموجودة اصلا بين الجمهوريات حين تغلبت المصالح المحلية. وهو امر كان من الممكن التغلب عليه كما يرى سمير امين "لولا ان التسبب داخل اجهزة الرقابة ازداد عقب وفاة تيتو وشهدت يوغسلافيا انفتاحا اكبر على آليات السوق وعلى المنافسة الدولية وشفق الغربيون بشدة لهذه التطورات وجاءت النتيجة المتوقعة : تزايد الفوارق فى التنمية الاقليمية فى الوقت الذى كان النظام العالمى قد بدأ يواجه ازمة انعكست على يوغسلافيا بعنف تمثل فى تراجع حجم الصادرات اليوغسلافية إلى الاسواق العالمية وتزايد المنافسة داخل يوغسلافيا لمواجهة هذا" (٤١).

وهذا الأمر ايضا أكدته "جوزية مينسينجر" استاذ الاقتصاد والنائب السابق لرئيس الوزراء السلوفينى حيث "أرجع الكساد الاقتصادى إلى انهيار الاسواق اليوغسلافية الداخلية الذى بدأ مع سقوط الموازنة الاتحادية ومقاطعة الصرب للبضائع السلوفانية والكرواتية. وذلك قبل ان يحدث الانفصال السياسى ولم يعد هناك وجود للسوق اليوغسلافية الموحدة اعتبارا من عام ١٩٩٠" (٤٢).

وطبقا للبيانات التى اوردها بلغ الانتاج الصناعى عام ١٩٩٢ فى سلوفينيا ٧٠٪ وفى الصرب ٥٥٪ وفى كرواتيا ٥٠٪ مما كان عليه فى عام ١٩٩٠ وعن الصادرات امكن لسلوفينيا ان تبقى فى عام ١٩٩٢ على المستوى ذاته فى عام ١٩٩٠ وبلغ معدل التناقص فى كرواتيا ٢٥٪ أما فى صربيا فقد بلغ التناقص ٥٠٪ (لا توجد أى بيانات اقتصادية عن البوسنة).

هذه الفوارق وهذا التباين فى المستويات الاقتصادية. ساعد على تفاقم الأزمة وزاد من الشعور بعدم المساواة وعجل من شن الحرب الاقتصادية بين الجمهوريات، وأعلى من شأن النزعات القومية. وكانت الجمهوريات ذات المستوى الاقتصادي الأعلى أكثر الجمهوريات رغبة وتطلعا إلى الاستقلال وأكثرها استعدادا لذلك مثل سلوفينيا وكرواتيا.

وهكذا ونتيجة لوجود أطراف داخلية ترغب فى توسيع حدودها وفرض هيمنتها، وحل أزماتها الاقتصادية مثل صربيا أو التخفف من عبء الآخر مثل سلوفينيا وكرواتيا. وأطراف خارجية لها مصلحة فى حدوث ذلك، تفجرت الأوضاع بهذا الشكل الدموى الحاد واستحضرت بعض الأطراف أسوأ ما فى الذاكرة من تاريخ واستخدموا التعدد الدينى والمذهبى والذى أصبح يمثل هوية قومية أسوأ استخدام وكانت البوسنة بما تمثله من نموذج جيد قابل للتعايش هى الضحية بين الأطراف المتصارعة، لأنها تمثل مجالا حيويا هاما لكل من صربيا وكرواتيا حيث تقع بينها وتعتبر النواة المركزية لتحقيق أى حلم توسعى يحقق صربيا الكبرى أو كرواتيا الكبرى. يضاف إلى كل ذلك أن البوسنة هى النموذج المصغر والمجسم للحالة الفسيفسائية التى يتسم بها المجتمع اليوغسلافى حيث يوجد بها أكبر أقلية صربية خارج حدود صربيا وأيضاً أقلية كرواتية. مع وجود حدود مشتركة بين الأقلية الصربية الموجودة فى البوسنة والأقلية الصربية الموجودة فى كرواتيا وهى منطقة شهدت صراعا عنيفاً بين الصرب والسلطات الكرواتية حين أعلن هذا الإقليم استقلاله ودعى إلى الاتحاد مع صربيا.

وما بين رغبة سلوفينيا وكرواتيا فى الاستقلال ورغبة الصرب فى بقاء الاتحاد كان الموقف البوسنى وسطى وتوفيقى

بين الاثنان كما أوضحنا رغبة منها فى بقاء معادلة التعايش ولذلك طرحت الحل السابق ذكره، والذي قوبل بالرفض من جميع الاطراف الفاعلة فى الواقع اليوغسلافى. ربما لان كل منهم يعرف ماذا يريد بالضبط وكان قد أعد العدة لتحقيق ذلك. وباعلان استقلال كرواتيا وسلوفينيا عام ١٩٩١ اصبح موقف البوسنة حرجا فهى لا تستطيع ان تبقى جزءا من يوغسلافيا الجديدة (صربيا والجبل الاسود) تحت زعامة الصرب، الذين كسروا عن انيابهم واطهروا رغبتهم التوسعية. وعليه فقد اعلنت انها لن تستطيع الاستمرار فى اتحاد لا يضم كرواتيا وسلوفينيا وأجرت استفتاء على الاستقلال أيده البوسنيون المسلمون والكروات وبعض الصرب. وكانت نتيجة الاستفتاء ٦٨٪ فى حين امتنع باقى الصرب عن المشاركة وسعوا إلى الغاء الاستفتاء ومنع حدوثه بكل الوسائل بما فيها استخدام المتفجرات، حيث طالبوا ببقاء البوسنة مع يوغسلافيا الجديدة والا فانهم سيعلمون استقلالهم والانضمام إلى صربيا. وتفجر الصراع بين الجيش الاتحادى وصرب البوسنة من جانب ومسلموا وكروات البوسنة من جانب آخر بعد ان كان قد اشتعل من قبل بين صربيا وكرواتيا، ولكن الاطراف الأوروبية استطاعت وقف هذا النزاع سريعا حين اجبرت الجيش الاتحادى على الانسحاب من سلوفينيا وكرواتيا بعكس البوسنة التى رفض الجيش الاتحادى الانسحاب منها وعندما فعل ذلك نتيجة لبعض الضغوط الخارجية جاء انسحابه انسحابا شكليا فقد ترك خلفه ٨٠ ألف مقاتل صربى من قوات الجيش بحجة انهم من صرب البوسنة وتغافل المجتمع الغربى عن ذلك. وفى هذا الشأن نلاحظ :

١- ان البوسنيون من خلال الطرح السابق أو تطويره في اتجاه قيام اتحاد فيدرالى بين صربيا والجبل والأسود وآخر بين كرواتيا وسلوفينيا والثالث بين البوسنة ومقدونيا، على أن تشكل هذه الاتحادات الثلاث اتحادا كونفدراليا يجمعها ويحافظ على وجود الكيان اليوغسلافى، لم تكن لديهم من البداية رغبة فى الاستقلال والانفصال بشكل كامل. ولكن فقط تحقيق شروط افضل وسيادة أعلى فى دولتهم والمحافظة عليها بحدودها دون تجزئة أو انفصال. اضافة إلى انهم ليس لديهم اية مطامع توسعية فى الاقاليم الاخرى مثل صربيا وكرواتيا.

٢- ترتب على هذا الموقف وهذه الرؤية انهم لم يعدوا العدة للدفاع عن استقلالهم فى حالة اعلانه عندما دفعته الظروف لذلك. مثلما فعل الآخرون حيث شرعوا منذ مدة طويلة فى تخزين السلاح وتشكيل الميليشيات منذ وقت مبكر.

٣- ان البوسنيين راهنوا بقدر مبالغ فيه على الموقف الدولى والشرعية الدولية والنظام العالمى الجديد... الخ وتصورا ان ذلك كاف للدفاع عن دولتهم طالما انها نالت الاعتراف الدولى، واصبحت عضوا بالأمم المتحدة كدولة ذات سيادة بحدودها التى حددها دستور يوغسلافيا السابقة عام ١٩٧٤ وهو موقف دفعت البوسنة ثمنه ولا زالت تدفع حتى الآن لانها لم تدرك ان الغرب له رؤى ومصالح اخرى مختلفة عما نتوقعه. وان آليات النظام الجديد تعيد رسم الخريطة العالمية بطريقتها هى كما فعلت فى الماضى ايضا - ولم تكن الخريطة أيضا فى صالح البوسنة - وان الغرب فى النهاية سيكون فى صف مصالحه وبجانب ابناء حضارته وثقافته اذا انعدمت المصالح أو كانت غير محددة وغير واضحة أو متشابكة ومتداخلة.

نتيجة لكل ذلك أصبح الصراع صراعاً غير متكافئ، صراعاً بين جيش صربي اتحادي يملك العتاد والمعدات وميليشيا صربية بوسنوية اعدت نفسها لمثل هذا اليوم. وبوسنيون مسلمون لا يملكون نفس القدر من العتاد يساعدهم - أحياناً - كروات هم إلى حد ما متآمرون مع الصرب على البوسنة - في المدى البعيد - إضافة إلى أن البوسنة لا توجد لها حدود مع دولة "أم" مؤيدة لها تقدم لها الدعم والعون. بعكس صربيا التي تقف بجوارها دول عديدة تؤيدها وتساندها وتمدها بالسلاح حتى في ظل الحظر المفروض عليها . وكرواتيا التي أمدتها الألمان بما يجعلها قادرة على الدفاع عن استقلالها. وفاقم من هذا الوضع ووصل به إلى حد المأساة قرار الحظر الذي فرضته المجموعة الأوروبية والأمم المتحدة على يوغسلافيا السابقة. وهو القرار الذي لم يكن فاعلاً إلا في مواجهة البوسنة فقط وهو أمر لا نعتقد أنه صدفة خاصة وأنه مستمر حتى الآن، بالرغم من أن نتائجها السيئة قد ظهرت على أرض الواقع لصالح صربيا التي تملك مصانع سلاح أصلاً. ورغم ذلك ورغم كل المجازر، لم يتم التراجع عنه بحجة أنه سيزيد من حدة القتال. وكأن القتال أصلاً ليس حاداً وكأنه ليس هناك شعباً يذبح ويقتل ويشرد وهذا لغز لا يمكن تفسيره إلا في ظل متابعة الموقف الدولي من حيث الفعل وليس القول.

الفصل السادس

الأطراف الدولية

الفاعلة في الأزمة

انتهينا إلى أن الأزمة اليوغسلافية هي محصلة تفاعل عوامل داخلية كامنّة في صلب تكوين الكيان اليوغسلافى، ونظامه السياسى والاقتصادى بالاضافة إلى عوامل خارجية تزامنت معها وتحكمت فى توجيه مسارها فى هذا الاتجاه. عقب انتهاء الحرب الباردة. فنحن لا يمكننا التعامل مع المشكلة اليوغسلافية بمعزل عن التغيرات الجذرية التى تمت فى أوروبا سواء إنهيار المعسكر الشرقى والاتحاد السوفيتى ، أو اتجاه أوروبا الغربية إلى الوحدة والاندماج ومحاولة كل طرف أوروبى تأكيد وتثبيت اوضاعه فى ظل المتغيرات الجديدة وهى متغيرات إقلت بظلالها على الأزمة كما سنرى.

فمن الغريب انه فى الوقت الذى تتجه فيه أوروبا إلى الوحدة تتجه يوغسلافيا - والاتحاد السوفيتى طبعاً - إلى التفكيت. وهنا يبرز سؤال هل تفتيت يوغسلافيا بهذا الشكل يخدم تلك الوحدة ويزيد من قوتها ؟ أم يدعم بعض الاطراف ويحقق لها الصدارة والقيادة ؟

الاجابة على هذا السؤال تكشف لنا السبب فى تباين المواقف الأوروبية وعدم قدرتها على اتخاذ موقف موحد بشأن هذه الأزمة المتفجرة فى قلب القارة، والتى تنذر بعواقب وخيمة على المدى البعيد، إلا إذا كان مسار الأزمة معروفاً ومحسوباً ومحددًا سلفاً ؟ وهذا ما سوف يظهر لنا من تتبع مسار الأزمة واسلوب الحل المتبع فيها فيما بعد.

الموقف الأوروبى :

منذ أن بدأت ملامح الأزمة اليوغسلافية فى الظهور أبدت معظم الأطراف الإقليمية والدولية تخوفها من الصراعات الداخلية ، وحرصها على عدم تدهور الأوضاع وإنهيار

يوغسلافيا ورفض العنف أو اعتماد القوة في حل الأزمة. ومع تفجر القتال اكتفت أوروبا بإصدار بيانات تدين القتال وتطالب بعدم تغيير الحدود الداخلية والخارجية إلا بموافقة جميع الاطراف. وبعد فترة فرضت حظرا على بيع السلاح ليوغسلافيا كاملة.

كانت خطوات التحرك بطيئة وغير حاسمة إلا في حالة سلوفينيا ثم كرواتيا وقد ساعد ذلك على استمرار الصراع وتفاقمه في البوسنة في وقت كان من المفترض أن تثبت أوروبا قدرتها على التعامل مع التهديدات التي تؤثر على أمنها المباشر. لقد اثبتت الأحداث محدودية وهامشية الدور السياسي والعسكري لدول أوروبا داخل حدودها، كما أكدت فشلها في صياغة سياسة خارجية وأمنية مشتركة لاختلاف المصالح الاقتصادية والسياسية وبالتالي الأمنية، والأكد أن رواسب الماضي حكمت الأزمة اليوغسلافية وخيمت على رؤوس أوروبا وأعادت إلى ذاكرتها صراعات ما قبل الحرب العالمية الثانية. وفي هذا الصدد نلمح في الموقف الاوروبى اتجاهين.

الاتجاه الأول :

مع التفتيت وهو الاتجاه الذى تقوده المانيا والنمسا وتؤيده على حياء إيطاليا. حيث وجدت المانيا التى انكسر حلمها القديم الفرصة سانحة امامها - بعد ان صارت القوة الاقتصادية الاولى فى أوروبا - كى تعيد امبراطوريتها المفقودة بطريقة جديدة، وذلك بأن تترث هى الدول التى خلفها الاتحاد السوفيتى وراءه. لذلك كانت المانيا هى أول دولة اوروبية تعترف بكرواتيا التى تربطها علاقات قديمة بالمانيا، والتى ستكون بمثابة رأس السهم الذى تتوجه به المانيا إلى دول أوروبا الشرقية، "فهناك رغبة المانية قديمة تهدف إلى التوسع نحو الشرق وتحويل

الشرق والجنوب الاوروبى إلى أمريكا اللاتينية التابعة لها" (٤٣) لذلك كان الموقف الالمانى المؤيد للكروات والمتعاطف مع اليوسنة والداعى إلى استخدام القوة ضد الصرب يتسق مع مصالحها وطموحاتها وعدائها التقليدى للصرب، بوصفهم القوى المنافسة للطموحات الالمانية والساعية للسيطرة على شعوب يوغسلافيا السابقة. خاصة وانهم حلفاء روسيا الجديدة الراغبة ايضا فى استعادة مجدها المفقود فى أوروبا الشرقية من خلال الصرب.

بهذا الاعتراف المبكر خرجت المانيا على الاجماع الاوروبى الذى كان لازال ينتظر قرار لجنة التحكيم، التى تبحث مدى التزام الجمهوريات اليوغسلافية بالشروط التى وضعتها المجموعة الأوروبية للاعتراف بهذه الجمهوريات، ووضع هذا الاعتراف أوروبا امام واقع جديد "ساعد على إذكاء الصراع" كما قال كريستوفر فيما بعد.

وما بين قوة المانيا ورغبة البعض فى التعلق بها مثل فرنسا ، حيث يلعب المارك الالمانى دورا كبيرا فى دعم الفرنك الفرنسى ، انحازت فرنسا إلى جانب المانيا. وان كانت احيانا تتسق مع بريطانيا وتلعب دورا كابحا فى اللحظات الفاصلة خاصة زيارة ميتران لمطار سراييفو ليؤكد انه مفتوح ويقطع الطريق أمام محاولة المانيا دفع الدول الأوروبية والأمم المتحدة لاتخاذ قرار بالتدخل عسكريا فى اليوسنة لحماية الكروات بالاساس اضافة إلى لقاءه بميلوسيفتش فى محاولة منه لدفع عمليات السلام بالضغط على صرب اليوسنة واثبات عدم عدائه للصرب وتجميل وجه ميلوسيفتش.

الاتجاه الثانى :

وهو اتجاه يخشى من تفتيت يوغسلافيا إلى دول مستقلة خوفا وخشية من أن يؤثر هذا الأمر على الاقليات الموجودة لديه، واليونان تحديدا هى خير مثال على ذلك. وقد لعبت اليونان دورا مؤثرا داخل المجموعة الأوروبية لدعم الصرب والوقوف ضد اتخاذ أى اجراءات عسكرية ضدهم، فاليونان تخشى من استقلال مقدونيا وأثر ذلك على الجزء المقدونى اليونانى، فقد يطالب بالانضمام إلى مقدونيا الجديدة. وقد اشترطت اليونان للاعتراف بمقدونيا ان تغير اسمها وان تنص فى دستورها على انها ليس لها مطامع خارجية لا حقوق تاريخية.

وبين هذين الاتجاهين ظل الموقف البريطانى فى الظاهر لا مباليا وان كان يلعب دورا لصالح الصرب حلفاءهم القدامى، وذلك بهدف الحد من الطموح الألمانى. وقد تم ذلك من خلال الوسيطين البريطانيين اللورد "كارينجتون واللورد اوين" حيث كان دورهما الاساسى هو تحذير وتهديد الطرف البوسنى والضغط عليه لصالح الصرب عادة. فكثيرا ما هدد اللورد كارينجتون بالانسحاب من الوساطة ووقف عمليات الإغاثة اذا لم يغير الطرف البوسنى مواقفه . وهو ما فعله اللورد اوين طوال فترة وساطته بشكل اكثر حدة ووضوحا حيث عارض فكرة رفع الحظر عن السلاح للبوسنة واعلنها واضحة "ليس امامكم إلا القبول أو الموت". لقد كان الصرب يمهدون الارض بالسلاح لفرض الامر الواقع على العالم والبوسنة وكان اوين يواصل هو الآخر تأكيد وتثبيت هذا الامر من خلال الضغط على المفاوض البوسنى لقبول هذا الواقع.

وقد عارضت بريطانيا دائما فكرة التدخل العسكرى بحجة حماية افراد قوات الأمم المتحدة فى البوسنة. وهو ما جعل

رئيس البوسنة يطالب بسحب هذه القوات والمرجح ان هذا الموقف البريطاني في جوهره ما هو إلا محاولة بريطانية لحرقلة المشروع الالمانى فى المنطقة. خاصة وان الحرب تفجرت اثناء محاولة عقد مؤتمر لزعماء البلقان (١٩٩١) لوضع اسس السوق البلقانية المشتركة والاتفاق على النظام والقواعد التى تحل مشاكل النزاع بين الاقليات وحقوقها وما يتفرع عنها وهو سوق لو تشكل سيكون للألمان بوصفهم القوة الاقتصادية النصيب الأكبر والفعال فيه. إضافة إلى أنه مشروع كان كفيلا بخلق مصلحة مشتركة بين دول البلقان قد تدفعهم إلى حل الخلافات بينهم بوسيلة اخرى غير السلاح والتوسع. هذا الموقف البريطانى وصفه نائب رئيس البوسنة بقوله "إن الانجليز يرغبون فى خلق فوضى فى البلقان لذا فهم يحتاجون إلى رعاه البقر الصرب لتعاد المنطقة من جديد إلى حظيرة الاستعمار الاقتصادى.

وهكذا لعب اختلاف المصالح والتوجهات بين الاطراف الأوروبية دورا حاكما فى مواقفها. إضافة إلى نظرتها للحرب الدائرة بأنها حرب أهلية داخلية وليس عدوانا من صربيا واحيانا من كرواتيا على البوسنة يضاف إلى كل ذلك وجود خوف حقيقى لدى الاطراف الأوروبية من قيام دولة صربية كبرى أو دولة إسلامية فى قلب أوروبا. وكانت الحرب الدائرة فرصة لتحطيم الاثنين معا إذا امكن وان كان الطرف الكرواتى هو المستفيد الأول من ذلك.

الموقف الروسى :

كان أكثر المواقف وضوحا وفاعلية فى دعمه للصرب وفى خرقه لقرارات الحظر المفروضة على الصرب حتى ان صحيفة بولتيكا اليوغسلافية قالت : "إن هناك ضغوطا روسية

قوية على امريكا وفرنسا لوقف التهديد بالتدخل العسكرى لدرجة ان ميتران عدل عن موقفه - بعد الضغط الروسى - وندد بمثيرى الحروب الذين يطالبون فرنسا بالتدخل العسكرى فى البوسنة (٤٤). وأكد دبلوماسى روسى "ان يلتسين يعتبر يوغسلافيا خطا أحمر وهو مستعد للقبول بتكدر فى علاقاته مع امريكا اذا طالبت بتدخل عسكرى ضد الصرب. وأضاف أن الجولات التى قام بها وزير الخارجية الروسى فى يوغسلافيا فتحت عينيه على مصالح روسيا الفعلية هناك" (٤٥). لقد ادركت روسيا اهمية الصرب لها فى اعادة ترتيب اوضاعها الداخلية واستعادة نفوذها المفقود مرة أخرى فى دول المعسكر الاشتراكى السابق. وفى ظل منافسة المانية فإن اعادة ترتيب يوغسلافيا مرة أخرى تحت زعامة الصرب سيؤدى إلى نجاح هذا التوجه الروسى الجديد اضافة إلى استخدام الصرب ودعم الروس لهم كورقة للمساومة مع القوى الغربية وامريكا وهو ما حدث فقد وصل الأمر إلى حد استخدام البوسنة بكل ما فيها من جرائم مذابح ورقة فى دعم موقف يلتسين داخليا فى مواجهة خصومه الذين يتهمونه بالخيانة القومية والسير فى فلك امريكا، وتم إرجاء التصويت على قرار بتشديد العقوبات ضد الصرب إلى ما بعد الاستفتاء داخل روسيا دعما ليلتسين" الذى يواجه ضغوطا متزايدة من جانب البرلمان الروسى من أجل معارضة فرض عقوبات أخرى على جمهورية الصرب" (٤٦).

وقد تم ذلك "فى اطار الصفقة الأمريكية الروسية حيث وافق كلينتون على طلب الرئيس الروسى بالتأجيل اثناء اللقاء الذى تم بينهم فى فانكوفر حتى لا تتأثر شعبية يلتسين امام منافسيه فى البرلمان" (٤٧) وكان كلينتون قد صرح من قبل "ان روسيا هى التى تقف وراء عدم التدخل العسكرى فى البوسنة

نتيجة للعلاقات التاريخية بين روسيا والصرب وأشار إلى أن التدخل العسكى ضد صربيا يعرض موسكو للخطر" (٤٨) وموسكو فى الادبيات السياسية الأمريكية ليست سوى يلتسين وتوجهاته فى مواجهة خصومة السياسيين. وعلى هذا الأساس تم مراعاة يلتسين على أمل أن يلعب دورا فى الضغط على الصرب عقب الاستفتاء، ولكن مشاكل يلتسين ومشاكل روسيا الداخلية لن تنتهى والانتخابات البرلمانية على الأبواب ولا بد من مراعاة ذلك أيضا. وجاء نجاح جرينوفسكى القومى الروسى المتطرف وحزبه الليبرالى فى انتخابات ديسمبر ٩٣ ليعمق من روح التضامن الروسى مع الصرب خاصة فى ظل المزايدة المتبادلة بين الطرفين حول أيهما أكثر إخلاصا للأمة السلافية ووصل الأمر إلى حد أن جرينوفسكى فى أعقاب جولة له فى البفان أعلن أن قصف أى بلده صربية هو بمثابة إعلان حرب على روسيا. لقد استطاعت روسيا أن تلعب دورا فعالا فى الأزمة اليوغسلافية لصالح الصرب عموما. مستغلة فى ذلك التخطيط والتردد الغربى والخوف من وجود دولة بوسنية موحدة ذات أغلبية مسلمة، حتى عندما وافقت على فرص عقوبات اقتصادية على بلجراد فقد كان ذلك شكليا، لأنه من الناحية العملية استمر دعم روسيا للصرب وابتقت على الاتصال الدائم بالعالم الغربى من خلال هذه الموافقة الشكلية. وبذلك تمكنت من أن تلعب دورا أفضل لصالح الصرب واستثمرت هذه الأزمة جيدا لتؤكد للجميع التزامها التاريخى تجاه الصرب وأهمية دورها - أى روسيا - فى النظام العالمى الجديد وضرورة عدم تجاهلها فى أى تسوية تخص يوغسلافيا أو دول أوروبا الشرقية.

من أجل كل هذا أصبح الصراع فى البوسنة بكل ما فيه من وحشية ولا إنسانية وجرائم خاضعا بالأساس لصراعات

روسيا الداخلية والتفهم الأمريكي لكل ذلك، ومراعاة المصالح الأمريكية الروسية المشتركة من خلال دعم طرف في مواجهة طرف آخر. باختصار أصبحت المشكلة اليوغسلافية ومحنة شعب البوسنة فرصة تستعيد بها روسيا دورها كقوى عظمى ولو في هذه المنطقة وأنحصر الهدف الأمريكي في مساعدة يلتسين للحد من نفوذ الشيوعيين والقوميين حتى ولو كان ذلك على حساب البوسنة وفناء شعبها.

الموقف الأمريكي :

يقول جوناثان آيل مدير المعهد الملكي للخدمات الموحدة "ان الصراع في يوغسلافيا كان متوقعا قبل حدوثه بسنوات وجهاز الـ A. I. C توقع بدقة متناهية متى سيبدأ، واطلعت على هذا التقرير كل الحكومات بل أن جيمس بيكر بعد اطلاعه على التقرير وقبل بدء الصراع بخمسة ايام فقط زار يوغسلافيا وقال لا شيء سيحدث وان يوغسلافيا ستبقى موحدة" (٤٩). وقبلها اعلنت امريكا انها لا تحبذ تفكك يوغسلافيا. والأرجح أن مثل هذه التصريحات جعلت الصرب يفهمون ان من حقهم منع التفكك ولو باستخدام القوة. لقد وجدت امريكا الفرصة سانحة أمامها لتؤكد عجز أوروبا عن مواجهة مشاكلها الداخلية وعدم قدرتها على حفظ الأمن والاستقرار داخلها خاصة وان هناك محاولة المانية فرنسية لتشكيل جيش اوروبى يتولى امن القارة مما يعنى الحد من التواجد الأمريكى داخل أوروبا. ثم ان هذا الجرح النازف فى قلب أوروبا سيحد من تطلعاتها وقدرتها على ان يكون لها دور منافس ومستقل عن الادارة الأمريكية، لذا كانت أمريكا دائما ما تعلن ان هذه مشكلة اوروبية.

هذا الأمر شجع الصرب على مواصلة العدوان وتحدى القرارات الدولية خاصة وان التصريحات الأمريكية كانت احيانا متضاربة و احيانا موحية، ففي الوقت الذى يعلن فيه المتحدث باسم الخارجية الأمريكية "إن بلاده ستعارض أى حل سياسى للأزمة يكافىء صرب البوسنة على عدوانهم أو يقسم الدولة إلى مناطق عرقية" (٥٠) كانت إدارة بوش "تطلب من القيادة البوسنية ان تبذل جهدا اخيرا للتوصل إلى تسوية تفاوضية" ولم تكن التسوية التفاوضية سوى تلك التسوية التى طرحها اوبن وفانس والقائمة اصلا على تقسيم البوسنة وهذا يتعارض مع ما سبق وان اعلنته امريكا من أنها لن توافق على حل يؤدى إلى تقسيم البوسنة ومكافأة المعتدى. كذلك وجه بوش "تحذيرا للصرب اذا حاولوا توسيع نطاق الحرب ومدىها إلى اقليم كوسوفو" (٥١) الأمر الذى فسره البعض بأنه يشكل تحذيرا فى الموقف الأمريكى فى اتجاه أكثر حسما. إلا أن لهذا التحذير الجيد وجهها آخر فهمه وادركه الصرب جيدا وتصرفوا على اساسه، وهو أنه لا مانع من توسيع نطاق الحرب فى البوسنة .

مع قدوم الادارة الجديدة والتى كانت قد وجهت انتقادات حادة إلى ادارة بوش بشأن تعاملها مع الأزمة مؤكدة انها سوف يكون لها نهج آخر أكثر حسما، حيث اعلم اسبن وزير دفاع كلينتون "انه اذا لم يفعل العالم شيئا تجاه ما يحدث فى البوسنة فإن ذلك قد يجرى بتكرار هذه الاحداث فى مناطق أخرى كالاتحاد السوفيتى سابقا واطاف ان المصلحة الأمريكية مهددة بالخطر فى البوسنة أكثر من التهديدات التى تتعرض لها فى الصومال" (٥٢).

توقع العالم اتخاذ خطوات عملية جادة فى اتجاه وقف المأساة فى البوسنة إلا أن الرئيس كلينتون "أوضح بجلاء ان

ارسال قوات امريكية برية إلى منطقة البلقان امر مستبعد وان كان اكد استعداده لاتخاذ اجراءات صارمة ضد مرتكبي عمليات التطهير العرقي" (٥٣) ثم عاد واعلن "ان بلاده لن تقوم بعمل عسكري منفرد لوقف عمليات التطهير العرقي" (٥٤).

هذا بالرغم من تصاعد اصوات كثيرة داخل الكونجرس والادارة الامريكية مطالبة بالتدخل العسكري وضرب مواقع الصرب ورفع الحظر عن السلاح إلى البوسنة، فهنري كيسنجر "يؤكد أنه إذا كان للتسوية ان تكون عادلة فيجب فرضها بالقوة ووصف اعتقاد كريستوفر بأن المفاوضات يمكن ان تؤدي إلى تسوية ترضى جميع الاطراف بأنه وهم" (٥٥) كذلك بريجنسكي أوضح أنه لا يؤمن بجدوى الجهود الدبلوماسية.

وقد تقدم عدد من أعضاء الكونجرس الأمريكي من الحزب الجمهوري بمشروع قرار ينهى الحظر المفروض على السلاح في البوسنة ومنح مساعدات عسكرية قيمتها ٢٠٠ مليون دولار، وتعالى اصوات بعض اليهود مطالبة ايضا بالتدخل لوقف عمليات التطهير العرقي باعتبار أنهم يدركون مرارة وبشاعة هذه التجربة التي مروا بها ايضا على ايدي اوروبية ايضا.

ومع اختفاء المصالح الامريكية المباشرة في يوغسلافيا ورغبة امريكا في استنزاف أوروبا ودفع التغييرات داخل روسيا إلى نهايتها التي ترجوها امريكا، تراجع الخيار العسكري الذي لوحته به امريكا كثيرا وساعد على ذلك أيضا الخلاف داخل إدارة كلينتون بين اسبن ورئيس مجلس الامن القومي الذين يحبذان العمل العسكري، وكريستوفر وكولين باول الذين يرفضان ذلك.

من هنا بدأ مسلسل التراجع الامريكي واصبح التفاوض هو الحل الوحيد في نظر الجميع وهو تفاوض سيتم على أساس

خطة التقسيم التي سبق وأعلنت امريكا انها لن تصادق عليها ولكن تم تعيين مبعوث أمريكي جديد مع الوسيطين الدوليين "وعندما سأل صحفي كلينتون عن عدم تدخله لضرب الصرب عسكريا كان رده هو عندما تسلمت السلطة كانت المسألة قد بلغت مرحلة خطيرة ثم لا يوجد في العالم رئيس يمكن ان يزوج بجيش بلاده في حرب لا تؤثر على مصالح بلاده مباشرة" (٥٦).

هذا التراجع الأمريكي والتذبذب دفع بعض المسؤولين الأمريكيين إلى الاستقالة وكان آخرهم جورج كيني المسئول عن قسم يوغسلافيا في الخارجية الأمريكية لشعوره بالاشمئزاز من سياسة بلاده السلبية تجاه الحرب المشتعلة في البوسنة - على حد قوله - ويرى كيني أن سياسة كلينتون أسوأ من سياسته سلفه بوش (٥٧) وكان قد سبق ذلك "تمرد الدبلوماسيين الـ ١٢" الذين انتقدوا في مذكرة رفعوها لوزير خارجيتهم سياسة المفاوضات الفاشلة في انتهاء عملية الإبادة والتطهير العرقي.

ولنا أن نتساءل ما هو السبب وراء هذا التذبذب والتراجع داخل الموقف الأمريكي هل هو ضعف في الرؤية الأمريكية وفي ادارتها ؟ أم هو أمر محسوب ؟ ولماذا تعلن ان المشكلة اوروبية ثم تصر في نفس الوقت ان يحظى أى حل برضاها ؟ وهو أمر وصفه البعض بالتناقض أو تقسيم ادوار خاصة بعد ان وافقت على الخطة . ولماذا تهدد امريكا مدافعة عن البوسنة بدرجة ما وعن كوسوفو بدرجة اعلى وأوضح ؟

أن الولايات المتحدة وبعد انتهاء الحرب الباردة وتراجع الصراعات الايديولوجية التي سمحت لها بالتواجد العسكري في أوروبا لم تعد ترى في أى خطر يهدد أوروبا خطرا يهددها ايضا، بل اصبح من الممكن اعتبار بعض المشاكل والاطار

داخل أوروبا ورقة ضغط يمكن الاستفادة منها واستثمارها لصالحها. فإختفاء الصراع الايديولوجي الذي جعل أوروبا حليفاً سياسياً وعسكرياً لأمريكا بلا قيد أو شرط سيجعل أوروبا تتحول إلى منافس اقتصادي وربما سياسى للولايات المتحدة خاصة بعد توحدها وزوال الخطر الروسى. وهنا كان لابد وان تتغير الاستراتيجية الأمريكية القديمة التى كانت تعزف على وتر الايديولوجيا إلى العزف على وتر جديد وهو وتر الاقليات لتصبح هذه الاقليات - اضافة إلى حقوق الإنسان وفقاً للمنظور الأمريكى - حصان طروادة الذى يخترق به الأمريكان البلاد الأخرى لتحقيق مصالحهم. ولأن الصراع القومى والعرقى تفجر فى أوروبا فكان لابد من استخدامه والاستفادة به. وعليه فإن اهتمام أمريكا بالأقليات الإسلامية فى أوروبا خاصة الالبانية هو بمثابة اختيار لهذه الاستراتيجية ولهذا كان اهتمام أمريكا منذ فترة بالبنيا وكوسوفو وكان حرص أمريكا على ان يحظى أى حل برضاها ليس حبا فى البوسنة والبوسنيين المسلمين - المحرومين من أبسط حقوق الإنسان وهو حق الحياة والدفاع عن النفس - ولكن لاستكمال وتحقيق الاستراتيجية الأمريكية الجديدة الرامية إلى خلق اصوليات متعددة لا اصولية واحدة فى هذا المكان أو غيره من الأماكن بحيث يتم استنزاف هذه المناطق فى صراعات تتبجح لأمريكا التواجد فى تلك المنطقة وفرض هيمنتها والافراد بقيادة العالم والتحكم فى مسارات الأحداث وتوظيفها فى حالة وقوعها.

الفصل السابع

أطراف دولية غير فاعلة

ونعنى بها هنا الدول الإسلامية والعربية ومنظمة المؤتمر الإسلامى إضافة إلى منظمة الأمم المتحدة.

الدول الإسلامية

انحسر موقف وقدرة الدول الإسلامية والعربية على التنديد الدائم بالعدوان الصربى على البوسنة ومناشدة الأطراف الدولية الفاعلة بذل جهودها لوقف هذه المأساة، واستخدام وسائلها الفعالة فى ذلك حرصا على الشرعية الدولية واحتراما لمواثيق الأمم المتحدة التى اعترفت بالبوسنة كدولة مستقلة.

عقدت هذه المنظمة مؤتمرا فى جدة حضره لورد اوين وفانس حيث مارسا ضغطهما ونجحا إلى حد ما فى تخفيف صيغة البيان الصادر. ثم حضر الرئيس البوسنى مؤتمر المنظمة فى داکار والتى سبق لها ان حددت فى وقت سابق "ان ١٥ يناير ١٩٩٣ هو الموعد الاقصى للتشاور مع الاعضاء الدائمين لمجلس الأمن، وإذا لم يتم اتفاق ما فان أعضاء المنظمة سيعتبرون أنفسهم فى حل من قرا مجلس الأمن حول يوغسلافيا (٥٨) وتحركت مجموعة الاتصال المنبثقة عن المؤتمر وهى مصر وتركيا والسعودية وباكستان وايران " وطالبت فرنسا بتحمل مسئوليتها لتأمين تطبيق قرارات مجلس الأمن والحفاظ على هبة الأمم المتحدة (٥٩) وبالطبع ١٥ يناير وغيره يحدث أن احلت هذ الدول نفسها من الالتزام بهذا القرار، وهو أمر من الصعب تحقيقه طالما لم يأتى الضوء الأخضر من القوى الدولية الفاعلة وخاصة أمريكا كما أنه يظهر مدى محدودية الدور والفاعلية التى يمكن ان تمارسها هذه الدول العالمثالث التى لا تملك إلا أن تتحرك وفقا للشرعية الدولية كما يحددها ويراهما المدعو بالنظام العالمى الجديد ، وهى امور محكومة بمصلحة

القوى الدولية الفاعلة ومن الصعب بل من المستحيل ان يحدث موقف مشابه لما حدث اثناء حرب الخليج الثانية وهو ما كانت تأمل فيه هذه الدول خاصة بعد أن وافقت على الموقف الأمريكى فى تلك الحرب.

ولأن تركيا هى الدولة الوحيدة الموجودة ضمن دول البلقان وتنتمى لمنظمة المؤتمر افسلامى وحلف الأطلنطى أيضا فقد حاولت ان تلعب دورا وسيطا فى حل هذه الأزمة خاصة وانها دولة اوروبية لها علاقات مع الجميع وترغب فى الانضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة اضافة إلى مصالحها الخاصة لذلك فقد دعت إلى التدخل العسكرى لردع الصرب بعد أن لاحظت أن الغرب لن يفعل واشترطت ان يكون فى اطار منظمة المؤتمر الإسلامى اذا لزم الامر وان يتم فى اطار الشرعية الدولية وموافقة المجتمع الدولى وهو أمر تعرف تركيا جيدا انه لن يتم لكن لا مانع من ابراء الذمة خاصة وان تركيا حريصة على ارضاء الطرف الإسلامى والطرف الغربى الذى تسعى جاهدة للانضمام إلى سوقه المشترك.

فى ظل هذه الظروف والأمكانات والمواقف استطاع وزراء خارجية ١٦ دولة من منظمة المؤتمر الإسلامى ان يتوصلوا فى إسلام اباد "إلى اتفاق يقضى بإرسال ٧٦٠٠ جندى للمساهمة فى حماية المناطق الآمنة (٦٠). وقبل انتهاء الاجتماعات كانت الدول الاعضاء قد قررت ارسال ١٨ الف جندى لنفس الغرض وذكرت المصادر ان ايران عرضت ارسال ١٠ آلاف جندى" (٦١) إلا أن "مستول أمريكى اعلن معارضة بلاده لإرسال قوات إيرانية إلى البوسنة لان ذلك ربما يثير مشاكل كبيرة، كما قابلت الأمم المتحدة عرض منظمة المؤتمر الإسلامى لارسال قوات يفتور" (٦٢).

وهكذا تم إجهاض أول فكرة عملية تطرحها منظمة المؤتمر الإسلامي بالرغم من ان الأمم المتحدة كانت تشكو من عدم توافق قوات لتنفيذ قراراتها الخاصة بحماية المناطق الآمنة، وهي المناطق التي سبق للبعض من البوسنيون رفضها باعتبارها بداية لخلق جيتو إسلامي. أو حصر المسلمين في أماكن يمكن فيما بعد الضغط عليهم أكثر أو ترحيلهم تحت إشراف الأمم المتحدة وبذلك يتحقق نفس الهدف الذي يسعى إليه الصرب. وهو ما حدث فعلا فيما بعد في مدينة سربرينتشا.

الأمم المتحدة :

لا يتصور عاقل أن يكون موقف الأمم المتحدة مخالفا أو معاكسا لرغبات القوى الدولية الفاعلة. ولأن الموقف الغربي متضاربا ومتريدا في الظاهر، ومحددا هدفه النهائي في الباطن فقد انعكس هذا الموقف على القرارات التي كانت تصدر من الأمم المتحدة وهي قرارات كثيرة، مضمونها إدانة الموقف الصربي وفرض عقوبات اقتصادية إلا أنها لم تكن ذات جدوى والعديد منها لم يوضع موضع التنفيذ، وإن تم تنفيذ بعضها فقد كان تنفيذها محدودا لوجود أطراف دولية ساهمت في اختراق هذا الحظر. ولم ينفذ الحظر الفعلي إلا على البوسنة .

فعلى سبيل المثال تم اصدار قرار بفرض الحظر على طهران الصرب فوق البوسنة وتم اختراق هذا الحظر وفق اعتراف مسئولين دوليين في البوسنة مئات المرات دون أي رد فعل حقيقي لوضع قرار الحظر موضع التنفيذ. ولأن الطرف الغربي الفاعل كان يرفض استخدام القوة ومنقسما على نفسه فقد انعكس ذلك أيضا على أمين المنظمة الدولية وأعلن رفضه لاستخدام القوة لانتهاء حرب الإبادة التي يتعرض لها شعب

البوسنة التي اعترف العالم باستقلال دولته من خلال الامم المتحدة ذاتها، ثم عاد واعلن موافقته على استخدام قوات الأمم المتحدة للقوة لحل الأزمة وقرار التسوية السلمية" (٦٣) تم تراجع مرة أخرى وعارض فكرة التدخل أو رفع الحظر عن السلاح الأمر الذي وضعه في مواضع الشبهات لدى البعض. فهل كان الوصول إلى حقيقة ان القوة وحدها هي الكفيلة بوقف هذه المأساة تحتاج إلى كل هذا الوقت ؟ أم أن الأمر تقسيم ادوار ؟ !.

ونتيجة لكل هذه التناقضات تعرضت الامم المتحدة وامينها لهجوم حاد وعنيف من قبل البعض، وخاصة في الأوروبية ولصحافة العربية. فقد انتقد النائب الديمقراطي "هوبنز" جهود الأمم المتحدة ووصفها بأنها زائفة وغير فعالة وكذلك النائب "ديكونسيتي" انتقد بطرس غالي بسبب تأييده تأجيل تنفيذ اعلان جمهورية البوسنة منطقة حظر على الطيران الصربي ووصف مفاوضات جنيف بأنها بغیضة لاننا طالبنا بجلوس ضحايا جرائم الحرب على نفس المائدة مع مرتكبي هذه الجرائم (٦٤).

واعتبر البعض ان بطرس غالي يمارس "بجدارة سياسة قذف الكرة إلى اعلى حتى لا تسقط على الارض" (٦٥) فبعد ان كان يعارض فكرة استخدام القوة عاد وأيدها، في نفس الوقت الذي اعترضت امريكا على هذه الفكرة بالرغم من انها هي الداعية اليها اصلا. وهو أمر اعتبره البعض مجرد تقسيم ادوار مقصود منه الوصول بالازمة إلى محطة معينة كذلك شنت "جين كيرك باتريك" هجوما حادا على بطرس غالي الأمر الذي تم تفسيره بأنه محاولة منها لتغطية الانقسام الواضح داخل حلف

الاطلنطى من جهة وبين الحلف والولايات المتحدة من جهة أخرى (٦٦).

وبالرغم من ان الهجوم الاوربى الامريكى على بطرس غالى هو محاولة منها لتبرير واخفاء مواقفها المترددة أو المحسوبة لانها تعلم اكثر من غيرها ان بطرس غالى لا يملك الا تنفيذ القرارات التى تسعى هذه الدول إلى تنفيذها ومع ذلك فنحن لا نستطيع ان نخفل ان د. بطرس غالى قد جانبه التوفيق كثيرا فى بعض التصريحات التى اعلنها وهى تصريحات جعلت الاطراف العربية والاسلامية تتهمه بالتحيز إلى الصرب الارثوذكس، فقد اعتبر بطرس غالى ان مفهوم حق التدخل العسكرى فى البوسنة يتعارض مع شرعية الأمم المتحدة التى تنص بالتحديد على عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول (١٢/٢٠) وهو فى هذا التصريح جانبه الصواب لانه اعتبر الحرب الدائرة فى البوسنة حربا اهلية داخلية ليس فيها طرف خارجى معتد وهو امر مخالف للحقيقة حيث اعترفت الأمم المتحدة بدولة البوسنة وبالتالي يصبح تدخل الجيش الاتحادى لدعم صرب البوسنة الانفصاليون هو عدوان على دولة مستقلة معترف بها دوليا ينطبق عليها ما تم تطبيقه على الكويت والعراق ثم انه ايد ووافق على التدخل العسكرى الدولى فى الصومال بالرغم من أن الصومال بالفعل هى التى ينطبق عليها مسألة الصراع الداخلى والحرب الاهلية اكثر من غيرها.

هذا يؤكد ان امين الأمم المتحدة لم يكن إلا مجرد منفذ لرغبات القوى الدولية ولا يستطيع ان يكون إلا كذلك طالما انه راغب فى البقاء فى هذا المنصب، علما بأنه كان قد طلب من حلف الاطلسى وضع خطط لثلاث عمليات عسكرية تحسبا لاحتمال التدخل العسكرى على ان تشمل هذه الخطط فرض

منطقة آمنة جوية محظورة فوق البوسنة، وإقامة منطقة معزولة للمدنيين وهي ما عرفت فيما بعد بالمناطق الآمنة وإيجاد وسائل لمنع امتداد الحرب إلى كوسوفو وهو الأمر الذي اهتمت به فعلا الولايات المتحدة. لكنه عاد فيما بعد وطالب مجلس الأمن بتأجيل اتخاذ أى إجراء عسكري ضد طائرات الصرب فوق البوسنة لاتاحة الفرصة لمفاوضات السلام وهي المفاوضات التي بدأت في ٢ يناير ٩٣ والتي سوف نتبع مسارها وما وصلت إليه لنرى هل الأمر صدفة أم لا ؟

وإذا كان بطرس غالى قد اشتكى من ان القوى الكبرى لا تعتمد على الأمم المتحدة بصورة كافية واعتبر ان المشكلة تكمن فى ذلك فهو هنا قد تجاهل حقيقة هامة وهي ان الدول الكبرى التي انشأت هذا الكيان من البداية انما انشأته ليكون غطاء لما تريد هي، وانها عندما تريد ان تتجاهل الأمم المتحدة طالما ان ذلك يحقق مصالحها فسوف تفعل. وإذا ارادت ان تستخدم الامم المتحدة لاختفاء تردها أو نأمرها فسوف تفعل ايضا وهو ما تم بالفعل فالمشكلة "ليست فى ان القوى الكبرى لا تعتمد على الأمم المتحدة بصورة كافية بل فى انها تعتمد عليها لخدمة تردها بالدرجة الاولى، فالأمم المتحدة لا تستطيع ان تقوم الا بما تريده منها الدول الاعضاء القيام به" (٦٧) لذلك تحولت الأمم المتحدة إلى وعاء فارغ تملأه أمريكا بما تريد.

وهكذا أدى تردد الأسرة الدولية وتضارب مصالحها وتصريحاتها إزاء أزمة البوسنة إلى تشجيع الصرب على مواصلة اعمالهم الوحشية والاستيلاء على المزيد من الأراضى، وممارسة أكبر وأوسع وأفظع حرب إبادة وتطهير عرقى فى تاريخ أوروبا. ومن تتبعنا لمسار الاحداث نكتشف حقيقة المواقف

والاھداف ونعرف الھدف من وراء هذا التردد والتخبط أو
التخاذل والتواطؤ.

الفصل الثامن

البوسنة والمجتمع الدولي

إذا كانت الجماعة الأوروبية بتدخلها السياسى (وفد الترويك الأول واتفاق بريونى للسلام) وضغوطها الاقتصادية بفرض عقوبات اقتصادية ضد يوغسلافيا. ثم الاستعانة بجهود الولايات المتحدة ومجلس الأمن لتعزيز الحظر على تصدير السلاح وفرض حظر على تصدير النفط ليوغسلافيا، قد نجحت فى وقف التدهور واحتواء النزاع العسكرى بين صربيا وسلوفينيا وكرواتيا فإن الأمر بالنسبة للبوسنة كان مختلفا تماما. فقد وجدت سلوفينيا وكرواتيا سندا قويا كالمانيا يقف وراءهما ويشد أزرهما ويمدهما بالسلاح ويدفع أوروبا والمجتمع الدولى إلى الاعتراف باستقلالهما عن الاتحاد اليوغسلافى، أما البوسنة فليس لها هذا السند ولا تجد دولة أوروبية تقف وراءها وليس لها "دولة أم" تمدّها بالسلاح والدعم كما هو الحال بالنسبة لصربيا أو سلوفينيا وكرواتيا كما وأنها ليست لها أية منافذ يمكن من خلالها تقديم الحون المحدود، ولأنه ليست هناك مصالح ذات قيمة فى البوسنة اللهم إلا منع توسيع نطاق الحرب. فقد أطلقت يد الصرب فى البوسنة كما أطلقت يد الكروات وأنصب الاهتمام الدولى فى عدم إتساع نطاق الحرب إلى باقى الجمهوريات - مقدونيا - وإقليم كلوسوفو وانتظار النتائج التى ستنمخض عنها الحرب والتدخل الدبلوماسى للسير بها فى الاتجاه المرغوب إذا انحرف المسار وتضاربت المصالح الوقتية فقد باختصار خان المجتمع الدولى البوسنة ولم تكن هذه هى المرة الأولى والأرجح أنها لن تكون الأخيرة التى يحدث فيها ذلك.

مسار الأحداث :

بدأت مفاوضات السلام فى ٢ يناير فى جنيف تحت إشراف اللورد اوين ممثلا للجانب الاوروبى وسايروس فانس

ممثلاً للأمم المتحدة وتم طرح خطة سلام تقضى بأن تصبح دولة البوسنة دولة غير مركزية، وأن يتم تقسيمها إلى ١٠ مناطق ذات حكم ذاتي واستمرت المفاوضات حول هذه الخطة فترة طويلة بين الأطراف، أعلن بعدها الوسيطان فشل المفاوضات. إلا أن صرب البوسنة أعلنوا فجأة قبولهم لمشروع التسوية على أن يتم التصديق النهائي عليها من قبل البرلمان ومع أنها مناوره مكشوفة من الصرب لكسب الوقت فقد وافقت المجموعة الأوروبية على هذا ومنحتهم مهلة ٦ أيام وهو أمر اعتبره البرلمان البوسني اعترافاً عملياً بدولة الصرب المتمردة في البوسنة وهو محق تماماً في هذا التقدير.

من الناحية الفعلية تعتبر هذه الخطة التي تقسم البوسنة على أسس عرقية متعارضة مع تصريحات أوروبا وأمريكا والأمم المتحدة التي كانت تؤكد دائماً على وحدة الدولة البوسنية، وقد ترتب على هذه الخطة بدء أول صراع عسكري مسلح بين الكروات والبوسنيين في محاولة من كرواتيا لتعزيز مواقفها العسكرية في المناطق التي حددتها الخطة وبذلك انهار التحالف الهش بين الكروات والمسلمين وهو تحالف وقته وانتهازي كان الكروات قد عقدوه بغرض الحد من المشروع الصربي التوسعي في البوسنة وتعزيز موقف الكروات داخل البوسنة وكذلك تحقيق مكاسب اقتصادية من بيع السلاح للبوسنة إضافة إلى استيلاء الكروات على بعض السلاح الذاهب إليها من أراضيها وكسب التعاطف الدولي من قبل الأطراف الإسلامية والعربية. ونتيجة لهذا التحالف أصبحت كرواتيا ملاذاً للمسلمين النازحين والهاربين من الجحيم الصرب الأمر الذي مكن الكروات فيما بعد من استخدام هؤلاء المهاجرين كورقة ضغط على البوسنة فيما بعد.

أما النتيجة العملية التي ترتبت على هذه الخطة فهي انها اكدت بقاء وقبول الأمر الواقع المفروض بقوة السلاح. وعليه تحرك الكروات واستكملوا حصار المسلمين في محاولة منهم لتحقيق مكاسب على ارض الواقع تكون بمثابة امر جديد في المفاوضات التالية وتحركت القضية إلى نيويورك وسط مخاوف من عدم تأييد امريكا للخطة حيث وصفتها بأنها غير عادلة بالنسبة لمسلمي البوسنة. وطرححت خطة بديلة رفضتها روسيا واقترحت التعاون مع أمريكا في إطار مشروع فانس - اوين الذي رأى فيه الوفد البوسنى تصديقا على الأمر الواقع ولا يمنح أى ضمانات بفرض شرعية الدولة ولا يعطى الحكومة البوسنية اية سلطات. كما لم تشدد وثيقة فانس - اوين على ضرورة منع قيام أى شكل من اشكال الوحدة بين اقليمين أو اكثر حتى لا يكون ذلك تمهيدا للانفصال فيما بعد أو قيام دولة داخل الدولة (٦٨).

كان اقصى التحركات الدولية في هذا الوقت هي القاء المعونات الطبية والغذائية فوق المناطق التي يحاصرها الصرب، بعد ان منع الصرب دخول قوافل الإغاثة إليها وهو أمر لم يكن ذا جدوى وفاعلية بل وصل بعضه إلى أيدي الصرب انفسهم كما قال البعض. ولم تكن هذه العملية المسرحية إلا مجرد حركة تثبت ان الطرف الدولى يتحرك لانقاذ البوسنة في محاولة لتقليل السخط العام، كما قرر مجلس الأمن تشديد العقوبات على الصرب بأغلبية ١٣ صوتا وامتناع روسيا والصين" وشهد القرار صراعا عنيفا بين مجموعة عدم الانحياز من جانب وأمريكا وروسيا من جانب آخر، بسبب الاتجاه داخل المجلس لتأجيل إصدار القرار. كذلك طالبت مجموعة عدم الانحياز بتقديم كافة المساعدات اللازمة لتمكين مسلمي البوسنة من الدفاع عن

أنفسهم، "كما طالبت مصر باستخدام الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة لمواجهة اعتداء القوات الصربية وعدم التعلل بالتخوف على أمن وسلامة قوات الأمم المتحدة (٦٩).

وبالرغم من تدهور الأوضاع بشكل اعنف داخل البوسنة أجل مجلس الأمن التصويت على تشديد العقوبة على الصرب إلى ما بعد الاستفتاء الروسي في ٤/٢٥ الأمر الذي شجع الصرب على تكثيف هجماتهم على مدينة سربينتشا. وما أن أصبحت المدينة على وشك السقوط بعد أن استمر الحصار والقصف الصربي عليها مدة تقرب من عام!! أعلن مجلس الأمن أن مدينة سربينتشا منطقة أمنة تحت حماية القوات الدولية، وبذلك أشرفت القوات الدولية على استسلام المدينة وقد إعتبر قرار مجلس الأمن رقم ٨١٩ (٩٣/٤/١٦) والقرار رقم ٨٢٤ (٥/٦) المناطق التالية اضافة إلى سربينتشا مناطق أمنة : تخضع لحماية الأمم المتحدة وهي :

- ١- العاصمة سراييفو ٣٨٠ ألف نسمة.
- ٢- توزلا ١٣٠ ألف نسمة وبها نسبة كبيرة من اللاجئين وهي مركز صناعي كبير.
- ٣- جورازدى ٦٠ ألف نسمة وهي المدينة الوحيدة على نهر درينا خاضعة لسيطرة الصرب ولها أهمية استراتيجية بالنسبة لهم مكلف بحمايتها ١٩٦ جندي بريطاني، ١٠ جنود نرويجيين، ٧٦ اوكرانيا.
- ٤- بيهاتش ١٥٠ ألف نسمة ولها أهمية كبيرة بالنسبة للبوسنة. مكلف بحمايتها ٢٨٠ جندي من بنجلاديش.

٥- زيبا ١٢ ألف نسمة والملاحظ ان أعداد القوات الدولية المكلفة بحماية هذه المناطق هي أعداد هزيلة لا تكفى للقيام بما تم تكليفها بها ولا حماية نفسها.

وقد كشفت صحيفة الايكونوميست فيما بعد مغزى اللعب بالألفاظ لدى دول الغرب مقارنة بقرار مشابه قائله لو أن نص القرار اعتبر المدن البوسنية ملجأ أمنا Haven مثلما حدث مع الأكراد في العراق لكان ذلك معناه تدخل الغرب لضمان حماية السكان، لكن اعتبار المدن البوسنية مناطق أمنة area فى نص القرار يعفيهم من ذلك الالتزام (٧٠).

فى ظل هذه الأوضاع طالب زعيم صرب البوسنة بتنازلات جديدة، أهمها إقامة ممر يربط بين جمهورية الصرب ومناطق صرب البوسنة. وقد لبي اللورد اوين طلبه الا ان زعيم صرب البوسنة عاد ورفض هذه التنازلات ووصفها بأنها غير مقبولة.

وفقا لهذا الاداء. يصبح سقوط مدينة سربينتشا هو النتاج الطبيعى لأداء المجموعة الأوروبية وامريكا وخطة اوين - فانس التى كافأت الصرب وسمحت لهم بأن يجنوا ثمار عدوانهم، بعد ان ظلت مأساة البوسنة تنتقل من مدينة إلى أخرى حتى وصلت إلى اثينا حيث وقع رادوفان كارادزيتش زعيم صرب البوسنة للمرة الاولى على خطة السلام الدولية تفاديا وإرجاءا لأى عمل عسكري يمكن ان يقوم به الغرب، واستغلالا لسماحة الغرب وسعة صدره تجاه الصرب. ولكن برلمان الصرب رفض خطة السلام التى تم توقيعها وعادت المشكلة مرة أخرى إلى مجلس الأمن بعد ان دعى البرلمان الصربى إلى عرض الخطة فى استفتاء عام فى منتصف ١٥ مايو وهكذا واصل الصرب مناوراتهم وواصل المجتمع الدولى الاستجابة لتلك المناورات

مؤكداً بذلك عجزه - أو اصراره - فى عدم اتخاذ أى اجراءات فعلية لوقف العدوان الصربى واكتفى "المجلس باصدار بيان موجز يؤكد فيه ان خطة فانس - اوين هى اساس التسوية السلمية" (٧١).

بعد ان تفجر خلاف بين اعضاء مجلس الأمن حول اسلوب واطار معالجة ازمة البوسنة اصدر وزراء خارجية الولايات المتحدة وروسيا وبريطانيا واسبانيا وفرنسا بياناً مشتركاً لتبنى استراتيجية جديدة لحل الأزمة (٧٢) لم تتحدث - أى الاستراتيجية - عن انسحاب قوات الصرب وانما تحدثت عن المناطق الآمنة والتي لا يسمح لمسلمى البوسنة بالخروج منها !! وقد وصفتها مصر بأنها "ستكرس الوضع القائم الذى يسيطر عليه الصرب وانها دون مستوى مواجهة المشكلة ولم يرد فيها استخدام القوة العسكرية واكتفت هذه الخطة بالاشارة إلى المساعدات الإنسانية ومنع امتداد الحرب إلى مقدونيا وكوسوفو" (٧٣).

وفى إطار التحرك الدولى المحسوب وافق مجلس الأمن على تشكيل محكمة دولية لمجرمى الحرب فى يوغسلافيا وهو أمر قابل بالترحيب والتحفظ معاً. فمحكمة مجرمى الحرب لا يمكن ان تتم دون إلقاء القبض عليهم، وهو أمر لن يتم دون تدخل عسكري دولى ، والتدخل العسكرى لن يتم على الاطلاق طالما بقى هذا التردد والتخبط. ويبدو ان قرار تشكيل المحكمة لم يكن الا بغرض الضغط النفسى على القيادات الصربية وإرضاء رأى العام المتألم من أحداث البوسنة والناقم على مواقف حكوماته. بدليل ان الاطراف الدولية كانت تضغط على المفاوض البوسنى بمواصلة التفاوض مع نفس مجرمى الحرب الصربيين

فى العواصم الأوروبية التى تستضيفهم لمواصلة التفاوض وتستجيب لمطالبهم.

أما الاستراتيجية التى اقترتها الدول الخمس فقد وصفها عزت بيجوفيتش بأنها لا تفى بالحد الأدنى لسلام عادل وتكافىء المعتدى بل وتؤيد سياسة التطهير العرقى (٧٤) بينما أبدى د. بطرس غالى تشككه فى جدواها وتشككه كذلك فى موقف بعض الأطراف التى لا تجد لها مصلحة فى التعاون وتعلن صراحة انه ليس من الوارد التخلى عن شبر واحد طهرته - طائفنا - (٧٥).

فى ظل هذا المناخ واصل الصرب تحديهم للمجتمع الدولى "وهدد زعيم الصرب فى البوسنة بأن قواته سستتزع سراييفو سلما أو حربا وطالب المسلمين بالتخلى عن فكرة دولة بوسنية موحدة وأكد أنه مستعد للتفاوض لكن دون أن يستغنى إطلاقا عن سراييفو" (٧٦).

وفى محاولة لاسترضاء الصرب وقبولا بسياسة الأمر الواقع التى يدعو اللورد اوين البوسنيين إلى قبولها. تم طرح خطة جديدة تقوم على تقسيم البوسنة إلى ثلاث دويلات واعلن كلينتون "ان بلاده مستعدة لبحث قبول هذا التقسيم تنفيذاً لمطالب الصرب والكروات واعترف انه كان يفضل دولة واحدة متعددة الاصول العرقية، وان التقسيم هو مكافأة للمعتدى. والقى بمسئولية ذلك على الأمم المتحدة التى فرضت حظر السلاح على المسلمين بينما الصرب والكروات ينالون ما يحتاجون (٧٧) ثم عادت واشنطن وأكدت رفضها لأى تقسيم للبوسنة وفرض أى حل سياسى بالقوة (٧٨).

فى نفس الوقت شدد الكروات من هجومهم على مدينة موستار البوسنة الاستراتيجية بالنسبة لهم مما أدى "إلى سحب

الأمم المتحدة لقواتها من المدينة بسبب التهديدات التي تتعرض لها من القوات الكرواتية" (٧٩).

لقد تكشف الدور الكرواتي الحقيقي والذي لا تقل خطورته على البوسنة عن الدور الصربي وتم فض التحالف بين الكروات والمسلمين وبدأت القوى السياسية الكرواتية المعارضة لسياسة الرئيس تودجمان تنتقد موقف الرئيس الكرواتي واعتبرت اتفاق رئيس كرواتيا والصرب على تقسيم البوسنة هو أكثر لحظات التاريخ السياسى المعاصر لكرواتيا مأساوية. وحمل كاردينال الكنيسة الكاثوليكية فى كرواتيا الرئيس تودجمان مسئولية تفجير القتال بين الكروات والمسلمين (٨٠) ووصف ذلك بأنه جريمة بشعة.

وقد تزامن مع هذا كله بداية الخلافات داخل مجلس الرئاسة البوسنى فى محاولة قادها فكرت عبيديتش مدعوما من الكروات والصرب معا بهدف عزل عزت بيجوفيتش، وكانت تلك محاولة للضغط عليه بهدف القبول بتقسيم البوسنة إلى ثلاث ولايات وفقا للمقترحات الصربية - الكرواتية. وعند هذا الحد أعلن زعيم البوسنة انه سيقبل تحويل البوسنة إلى كونفدرالية مقسمة على اساس عرقى فى حالة عدم وجود بديل بينما رفض مجلس الرئاسة ذلك ثم عاد ووافق على تقسيم البلاد اقتصاديا وليس عرقيا (٨١).

وسط هذه اللامبالاة الدولية صعد الصرب من هجومهم على سراييفو واكتفى مجلس الأمن بمطالبة قوات الصرب بوقف هجماتها، ومناشدة جميع الاطراف لحضور محادثات السلام فى جنيف. وازاء تصعيد الهجوم والحصار على سراييفو "اعرب المتحدث باسم الخارجية الأمريكية عن قلق بلاده البالغ لما يحدث فى سراييفو مع نفيه لاحتمالات التدخل العسكرى للحيلولة دون

سقوط المدينة مؤكدا امكانية اللجوء للضربات الجوية فى حالة تعرض قوات حفظ السلام الدولية للهجوم فقط وليس المدنيين" (٨٢).

فى جنيف بدأت المفاوضات حول خطة التقسيم والمشروع الدستورى المقترح الذى يقضى باقامة ٣ جمهوريات على اساس عرقى يجمع بينهم ما يسمى بالجمهوريات المتحدة البوسنية. فيما "اعلن المتحدث باسم الخارجية الامريكية ان بلاده مستعدة للقيام بعمل عسكري منفرد لوقف عمليات القتال بالبوسنة وانه من المحتمل ان تتم الهجمات على مواقع القوات الصربية خلال ايام قليلة وليس اسابيع أو شهور" (٨٣) ولم تدم هذه اللمحة الحادة كثيرا - كالعادة - ولم توضع موضع التنفيذ وسرعان ما عاد البيت الابيض "ليعلن ان امريكا طلبت من حكومة البوسنة استئناف مفاوضات جنيف وهددت بتأجيل الضربات الجوية إذا رفض المسلمون مواصلة المحادثات" (٨٤) كل ذلك فى الوقت الذى كان الصرب يواصلون تحديهم للمجتمع الدولى كله، ويتجاهلون كل هذه التهديدات الصادرة من الاطراف الدولية الفاعلة ويواصلون تقدمهم نحو سراييفو. وقد كشف الناطق باسم الحكومة البوسنية "ان قبول بلاده بمبادئ المستقبل الدستورى التى أعدها الوسيطان الدوليان خطأ جسيم حدث بسبب الضغوط الشديدة على المسلمين" (٨٥) فحقيقة هذه الخطة وهذا الدستور انهما يستجيبان لمطالب ومطامع كل من الصرب والكروات حيث يحق للمواطن الصربى والكرواتي الحصول على الجنسية الصربية والكرواتية بجانب جنسيته فى دولة البوسنة المقترحة فى الاطار الكونفدرالى. وهو أمر يمهّد الطريق أمام الصرب والكروات فيما بعد للانضمام إلى صربيا وكرواتيا لتحقيق صربيا وكرواتيا الكبرى على حساب البوسنة. وصرح بيجوفيتش ان

الخيار الآن.. بين الموت أو التقسيم " حيث لم يعد هناك احتمال ان يرفع الغرب اصبعاً واحداً لانقاذ بلادنا من التقسيم" (٨٦).
مع زيادة الضغط الصربي على سراييفو تم الاتفاق على اخضاع سراييفو للإدارة الدولية لفترة انتقالية مدتها عامان خاصة حين هدد بيجوفيتش بمقاطعة المباحثات اذا لم تنسحب القوات الصربية من جبل ايجمان" (٨٧) وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي تحركت فيها القوى الدولية بشكل فعال لانقاذ مدينة سراييفو من السقوط في ايدي الصرب، لان سقوطها يعنى تحقيق الحلم الصربي وتعطيل بل وانهاء عملية التقسيم الثلاثية التي يتم تنفيذها. وبالتالي ضياع المنطقة التي من الممكن حصر المسلمين فيها خوفاً من تشتتهم في الدول الأوروبية بحيث يصبحوا فلسطينوا أوروبا ويشكلون عبئاً جديداً على الدول الغربية. فإذا كانت أوروبا - مصدر الحركات الفاشية والعنصرية - قد نجحت في التخلص من اليهود في الماضي بترحيلهم إلى فلسطين حين غضت الطرف عن عمليات التطهير العرقي والابادة مارسها النازي - تماماً مثلما تفعل الآن - فإنه في هذه المرة ليس هناك مكانا يتم ترحيل البوسنيين المسلمين اليه وإنما سيصبحوا لاجئون في أوروبا وما يترتب على ذلك من عنف أوروبا في غنى عنه، لذلك كان لابد من بقاء جيب صغير يأويهم بعيداً عنها ولن يخرج أى حل عن ذلك.

وقبيل توجهه إلى جنيف صرح بيجوفيتش "ان المقترحات المطروحة اسوأ من الحرب بينما هدد رادوفان كارادزيتش بتقسيم البوسنة بين الصرب والكروات فقط اذا طالب المسلمون بتعديل حصتهم و اضاف ان المسلمين يقامرون بفقدان ما تبقى بين ايديهم حالياً وهو ١٠٪ من الاراضى" (٨٨).

هذا فى الوقت الذى "اكذت" فيه خمسة احزاب كرواتية معارضة موقفها الداعم لوحدة اراضى البوسنة وذلك فى مواجهة السياسة التقسيمية التى توصلها حكومة الرئيس تودجمان، والمشجعة لما يسمى (بجمهورية هرسك بوسنة الكرواتية) وترى أحزاب المعارضة ان ذلك لابد وانه تم بالاتفاق مع الصرب مقابل السكوت عن احتلال الصرب لاراضى كرواتية (٨٩) وبرغم تأكيد الرئيس بيجوفيتش ان الضربة الأمريكية من شأنها ان تحل المشكلة البوسنية وانها الحل الوحيد اذا استمر الصرب فى عنادهم (٩٠) إلا أن رفض كلينتون طلب بيجوفيتش موضحا انه يفضل الاستمرار فى العملية التفاوضية دون اقحام عنصر الضغط (٩١).

واتساقا مع الموقف التركى - السابق ذكره - أيد وزير خارجية تركيا عملية السلام التى تقوم بها الأمم المتحدة ولكنه أكد أن هذه العملية لا يجب أن تعطى فوائد للمعتدى (ولا ندرى كيف!) وان تكون جمهورية البوسنة مستقلة ذات سيادة وتستمر عضوا فى الأمم المتحدة وإذا جرى تقسيم البوسنة فان الخطوة يجب ان تأخذ فى الاعتبار ان المسلمين يشكلون ٤٤% * وان يكون لهم وضع ملائم يمكنهم من الحياة والبقاء بدنيا واقتصاديا وان يكون لهم على الأقل منفذ بحرى (٩٢).

* النسب المتداولة والشائعة تقول بان نسبة المسلمين ٤٦% والصرب ٣٤% والكروات ١٨% من تعداد البوسنة وعليه يبقى ٢% يمثلون أعراق أخرى. ولكن تعداد البوسنة وفقا لجندول التعداد السابق - وهو اخر احصائيات منشورة - هو ٥,٤٢٩ مليون يمثل تعداد الصرب منهم ١,٢٠٠ مليون وهذا معناه أن نسبتهم ٢٣% وليس ٣٤% كما هو شائع، ومع ثبا نسبة الكروات (١٨%) وباقى الاعراق (٢%) تكون نسبة المسلمين ٥٧% وليس ٤٦% كما يقال وعموما هذا أحد لوغاريمتات أزمة البوسنة الكثيرة.

ولأول مرة وبعد فوات الأوان وارضاء للضمير "صوت البرلمان الاوروبى لصالح اتخاذ اجراء عسكرى لانهاء الحرب فى البوسنة ودعا الاعضاء إلى فرض تطبيق قرارات الأمم المتحدة" (٩٣) كذلك وعدت امريكا حكومة البوسنة بتنظيم حملة تبرعات دولية لاعمار الجمهورية الإسلامية التى ستشكل بموجب خطة التقسيم" (٩٤) فى محاولة منها لدفع برلمان البوسنة للموافقة على خطة. التقسيم إلا أن البرلمان رفض هذه الخطة.

وهنا تواصل الضغط على الطرف البوسنى للقبول بالخطة المجحفة الرامية إلى تفتيت الدولة البوسنية بأن رفض برلمان كروات البوسنة تقديم تنازلات اقليمية للمسلمين تسمح لهم بمنفذ على ساحل الادرياتيكي" (٩٥) وسحب الكروات والصرب تنازلاتهم التى قدموها للمسلمين وهى تنازلات عن ارض تم اغتصابها اصلا من البوسنة وبدأوا فى التصعيد السياسى العسكرى. فالى جانب هجومهم العسكرى - تم دفع عناصر جديدة موالية لهم من بين المسلمين إلى التمرد وعلان الانفصال عن الدولة البوسنية كعامل جديد من عوامل الضغط يهدف إلى انهاء دويلة البوسنة المقترح إنشاؤها وفقا لخطة التقسيم. واعلنت توزلا - بعد بيهاتش - الحكم الذاتى وتحدث "قادر وفيتش" عن مؤازرة الصرب والكروات داخل المدينة وخارجها لمؤيدى الحكم الذاتى وان عبديتش وعد بتقديم مساعدات ضخمة والتعاون فى مختلف المجالات" (٩٦) كذلك هدد عيديتش باجراء مفاوضات مع كل من الرئيس الكرواتى والصربى اذا لم يلب بيجوفيتش ونائبه دعوته لاجتماع عاجل" (٩٧) وواصل الاعلام الكرواتى دعمه لعبديتش ونشرت صحفه رسالة من عبديتش يتهمه فيها بأنه خرق الدستور البوسنى على مدى الاعوام الثلاثة الماضية، وانه - عبديتش - يرفع صوته كرئيس دستورى واخلاقى

ومعنوى للبوسنة والهرسك وانه سيطالب بالحد الأقصى من مساعدة ومشاركة الرئيس الصربي والكرواتى فبدونها يصعب التوصل إلى سلام" (٩٨) ولكن من هذا الـ "عبديتش"؟

هو رجل اعمال سبق اتهامه بقضايا اختلاس وحكم عليه بالسجن عامين قبل تفتيت يوغسلافيا. كما أنه مطلوب للمحاكمة أمام السلطات النمساوية بتهمة السطو على الأموال والمعونات التي يتم ارسالها دعما للاجنيين. اضافة إلى حصوله على أموال من البوسنيين المسلمين بدعوى التدخل لدى الصرب نتيجة لعلاقته الطيبة، بهم وقد اعلن قيام تحالف بين القوات التابعة له والمليشيات الكرواتية والانفصالية ردا منه على قرار استبعاده من الرئاسة البوسنية وبذلك تم فتح جبهة جديدة للقتال بين المسلمين وبعضهم البعض.

ومع إعلان الحكومة البوسنية الجديدة موافقتها على حضور مؤتمر سلام ثانى فى لندن لمناقشة خطة التقسيم الجديدة، أعلنت مصادر دبلوماسية غربية ان المجموعة الغربية قد تعين وسيطا جديدا فى حالة اتخاذ قرار عقد المؤتمر ليحل محل الوسيط لورد اوين" (٩٩) حيث اتهمته القيادة البوسنية بالانحياز إلى الصرب واشترطت اعفاءه من الوساطة كشرط للعودة للمفاوضات. ومع هذه الرغبة البوسنية للعودة إلى المفاوضات بدأ الصرب يطالبون برفع العقوبات الاقتصادية عنهم مقابل العودة إلى المفاوضات. وفى ظل هذا السياق تقدمت ألمانيا وفرنسا بمبادرة بشأن دفع عملية السلام تضمنت وعدا برفع العقوبات المفروضة على الصرب فى حالة التنازل لمسلمى البوسنة عن مزيد من الاراضى التى احتلها الصرب اصلا من البوسنة. والملاحظ ان هذه المبادرة هى ايضا بمثابة تنازل اوروبى جديد امام الصرب والكروات اضافة إلى انها تدعو لرفع العقوبات عن

الصرب "وقد وافقت المجموعة الأوروبية على هذه المبادرة على ان يتم تعليق بعض العقوبات الاقتصادية بدلا من رفعها وهو تعديل جاء لضمان موافقة امريكا على الخطة" (١٠٠).

كذلك أكد دوجلاس هيرد "انه ليس هناك مجال لرفع العقوبات عن حكومة بلجراد قبل انصياعها لقرارات الأمم المتحدة بشأن البوسنة، واعرب عن تشككه فى امكانية التوصل إلى اتفاق سلام فى وقت قريب. فيما اعلن رئيس وزراء البوسنة تأييده للمبادرة الفرنسية ووصفها بأنها المبادرة الوحيدة المتاحة فى الوقت الراهن" (١٠١) كذلك واصل زعيم صرب البوسنة ابترازه للعالم الغربى "ودعا الأمم المتحدة إلى تأجيل فرض العقوبات على صربيا والجبل الاسود قبل بدء المباحثات لتحقيق المساواة الكاملة من جميع الاطراف، مؤكدا انه اذا تم هذا التأجيل قبل المباحثات فسوف يكون صرب البوسنة على استعداد لاحراز تقدم بشأن مطالب المسلمين" (١٠٢).

اما اللورد اوين فقد كشف عن وجهه الحقيقى بلا مواربة فى محاضراته التى القاها بلندن حيث اكد ان قيام دولة اسلامية مستقلة فى البوسنة سيصبح امرا حتميا - لماذا فى نظر اوين - بسبب تخلى واشنطن عن دعم خطته لتقسيم الجمهورية لثلاث دويلات عرقية فى اطار اتحاد هـش !! - حسب تعبيره - وعن مستقبل البوسنة اشار إلى وجود خيارين فقط امام اطراف النزاع حاليا وهما قبول الخطة ثم تفكيك الاتحاد المرتقب فيما بعد بسبب رغبة الصرب والكروات الواضحة فى الانضمام إلى صربيا وكرواتيا. أو الاعتراف بدولة مستقلة للمسلمين فى قلب أوروبا ولكن يجب الا يثير ذلك مخاوف الأوروبيين (١٠٣).

ماذا يعنى هذا الكلام ؟ انه ببساطة يدل على وجود خوف حقيقى داخل أوروبا من وجود هذه الدولة الإسلامية كما

يتصورون. فبالطبع لا يمكن تصور أن اللورد أوين ممثل المجموعة الأوروبية يعبر عن رأيه الشخصى فى تلك المحاضره فقط وإلا ما استمر فى أداء مهمته بعد ذلك برغم اعتراض البوسنة عليه.

ولعل هذا يفسر إلى حد كبير سبب التردد والتخبط الاوربى تجاه الأزمة البوسنية تحديدا والسير بها فى اتجاه يمنع حدوث ذلك يقدر الامكان. وعندما اصبح لا مفر من وجود دولة اسلامية صغيرة يتم حصر ابناء البوسنة فيها فإنه يحمل امريكا مسئولية ذلك ثم يطمئن الغرب بالا يخشى هذه الدولة.

بهذا القدر من الصراحة والوضوح كشف اوين عن وجهه الحقيقى وربما الوجه الاوروبى الذى يمثلته فى تلك المفاوضات والتي من بداياتها طرحت حلا يشكل تراجعا عن الاعتراف الدولى بالبوسنة كدولة مستقلة ذات حدود معترف بها دوليا وذات سيادة على اراضيها وكان ذلك فى حمية تسويق النظام العالمى الجديد والحديث عن الشرعية الدولية واحترام الحدود وعدم مشروعية العدوان وعدم التسليم بنتائجه.. الخ. إلا أن الخطة المطروحة جاءت لتتسلف كل ذلك وتكرس الأمر الواقع الذى تم فرضه بقوة السلاح الصربى، فى ظل صمت غربى وضغوط من الوسيطيين الدولى والاوروبى وصلت إلى حد تحميل الضحية مسئولية ما حدث له.

فبعد ان منعوا عنهم السلاح قالوا لهم لقد انهزمتم على ارض الواقع وتمكن الصرب من ٧٠٪ من اراضى دولتكم فلماذا تكابرون.. كونوا عمليين وواقعيين فأنتم ضعفاء.. وعليكم ان تدفعوا ثمن هذا الضعف فنحن فى زمن الاقوياء والظلم السريع.. هذا هو المنطق الذى حكم سير المفاوضات من البداية حيث ممارسة الضغوط على الطرف البوسنى وتحميله مسئولية فشل

المفاوضات وتهديده بأنه سيخسر كل شيء. وازداد القاء اللوم على الضحايا عندما رفض البرلمان البوسنى خطة التقسيم الثلاثية الاخيرة وهى خطة تنسف الاعتراف الدولى السابق بالبوسنة وتتعارض مع الشرعية الدولية التى يتحدثون عنها وتتهى وجود دولته إلى الابد بل وتقسم بلاده بين المعتدين الصرب والكروات وتقر سياسة التطهير والابادة بل وتوسع نطاقها وتمنحها الشرعية.

وبينما دولة البوسنة تسير إلى نهايتها المرسومة - حتى وان طال الوقت - وحكومة البوسنة تبدى تشاؤمها ازاء امكانية التوصل إلى اتفاق نهائى فى محادثات جنيف وبروكسل "حضت الجمعية العامة الدول الاعضاء والمجتمع الدولى على التعاون مع جمهورية البوسنة والهرسك فى ممارسة حقها الطبيعى فى الدفاع عن النفس فى صورة منفردة أو جماعية وفقا للمادة ٥١ من الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة" (١٠٤).

اخيرا تذكر العالم المادة ٥١ وبدأ الكلام عنها ولكن من جهة ليست ملزمة لمجلس الامن، ومع ذلك امتنعت دول الاتحاد الاوروبى وروسيا عن التصويت بينما ايدت امريكا ذلك اما فى جنيف وبروكسل فقد أعلن اللورد أوين فشل المحادثات مشيرا إلى "أن الزعماء سيعودون للتفاوض فى ١٥/١/١٩٩٤" (١٠٥) ومع انهيار المحادثات تصاعدت حدة المعارك وحدة التصريحات المتبادلة من جميع الاطراف لا سيما الجانب الصربى والكرواتى.

وهكذا مضى ما يقرب من عامين وشعب البوسنة يتعرض لابشع عملية اباداة منظمة يشاهدها العالم على شاشات التليفزيون ليتابع يوما بيوم ما تم انجازه ! فبعد عشرة اشهر من القتال كان الغرب يتحدث عن سقوط ١٠٠ الف قتل وتشريد

اضعاف ذلك. واغتصاب ما يقرب من ٣٠ الف امرأة (وفقا لتقارير دولية) واكثر من ١٥٠ معسكر للاعتقال الجماعي تحمس احد الوزراء الفرنسيين وأعلن استعداد بلاده لفتح هذه المعسكرات بالقوة، لكنه تراجع بعدما تدخلت اللغة الدبلوماسية الباردة والتي لا تهتم كثيرا بالدماء الساخنة التي تراق بل وشكك البعض في أرقام القتلى والمغتصبات ليقول من حجم المأساة. كما تم تدمير ما يزيد عن ٨٠٪ من مرافق الدولة. اما المساجد فقد وصل عدد ما تم تدمير ما يقرب من نصف المساجد البالغ عددها ١٥٠٠ مسجد بعضها تم ازالتها تماما إضافة إلى ازالة قرى بأكملها. كل ذلك يحدث امام العالم اجمع فى الوقت الذى يجهد فيه البعض انفسهم بذكر الاسباب التى تعيق استخدام القوة ضد المعتدى سواء من الناحية العسكرية أو السياسية أو المناخية بينما لم يطرحوا على انفسهم سؤال هام وهو ماذا لو ان الأمر معكوس والبوسنيون هم الذين يعتقدون على الصرب هل كان الامر سيأخذ نفس الوقت من التفكير والتردد ؟ واذا كانت هناك اسبابا تمنع التدخل عسكريا ضد الصرب نتيجة لطبيعة الارض وقوة الجيش الصربى ووجود عوائق فنية ولوجوستية الخ فهل سيكون الحال كذلك اذا تحول الصرب بعد اتمام عملهم فى البوسنة إلى كوسوفو أو إلى مقدونيا ؟ وهل سيكتفى الصرب بالبوسنة التى وافق الغرب على اقتراسهم لها ربما بغرض دفع الصرب إلى التخلي عن باقى مشروعهم التوسعى فى البلقان ؟.

لقد ترتب على هذا التردد وتبادل الاتهامات بين أوروبا وأمريكا والأمم المتحدة تراجع المجتمع الدولى - الغربى - عن اعترافه السابق بالبوسنة كدولة وتم طرح خطة تقر ما تم فرضه بالقوة، وتفرض التقسيم على اسس عرقية دينية إلى ثلاث دويلات، لكى يتم تحقيقها لابد وان تتم عملية تطهير وتفرغ

لبعض الاماكن من سكانها وتنفيذ عمليات الترحيل "الترانسفير" بواسطة المجتمع الدولي والأمم المتحدة ذاتها - أو ترك الحرب لفترة أخرى حتى يتم ذلك على ارض الواقع - بالرغم من انهما اصما آذان العالم بالشرعية الدولية ورفض سياسة التطهير العرقى وتقسيم البلاد على اسس عرقية.

أمام كل ذلك يحق لنا ان نتساءل هل هذا الحل الذى يتم طرحه وفرضه صدفة وتحصيل حاصل ؟ أم أنه يتم وفقا لسيناريو واضح ومحدد يهدف فى النهاية إلى الوصول لهذه المحطة وهذا الحل الذى يحمل اوين امريكا مسئولية الوصول اليه. ويطمئن أوروبا بالا تخشى منه وكأنه كان لا يريد ذلك ايضا ! فهل تخلت أمريكا فعلا عن دعم خطة التقسيم كما يزعم أوين أم أنه لازال يتمتع بجهل سياسى - كسابق عهده الملئ بالفشل - جعله يتصور ذلك. هذا ما سوف يتضح من سيناريو المفاوضات والضغط والمناورات المقبلة .

الفصل التاسع

البوسنة وتأكيد الأدوار

لم يختلف الاداء الدولى - الغربى طبعا - فى عام ٩٤* كثيرا سواء من حيث التخاذل والتخبط الذى هو فى اعتقادنا أقرب إلى التواطئ والتأمر وأن كان البعض يفضل تعبير العجز والتردد من باب التبرير والتجميل، أو من حيث استمرار التصريحات والتهديدات الجوفاء من حلف الناتو والأمم المتحدة والمجتمع الغربى والتى لا تحمى ولا تغنى عن قتل، ولهذا إستهان بها الصرب كثيرا. خاصة وأن بعضها للاستهلاك وحفظ ماء الوجه وبعضها الآخر لم يخلو من تبادل الاتهامات بين الاطراف الدولية حين القى كل طرف مسؤولية ما يحدث على الطرف الآخر واستغل الصرب هذا التناقض جيدا.

باختصار واصلت القوى الدولية الفاعلة تحركها فى اتجاه إدارة الأزمة - وتحقيق بعض المكاسب على حساب شعب البوسنة - أكثر من تحركها فى اتجاه إنهاء الأزمة حيث ألقت خلافات المصالح وتصارع الأدوار بظلالها الكئيبة على الأزمة منذ تفجرها. وما بين رغبة روسيا فى إستعادة دورها وطموحها المفقود على الصعيدين العالمى والأقليمى وإبلاغ العالم أنها ليست مجرد تابع للسياسة الأمريكية كما حدث فى حرب الخليج، خاصة عندما لم يتفهم الغرب جيدا المصالح الروسية فى تركتها القديمة، ورغبة أمريكا فى تأكيد انفرادها بقيادة العالم وأختبار استراتيجيتها الجديدة عقب حرب الخليج وسعيها إلى ملء الفراغ الحادث فى أوروبا بعد أن احكمت تواجدتها فى الخليج، ما بين هاتين الرغبتين، صارت البوسنة

* اعتمدت على :

- ١ - نشرة المحرسة الأسبوعية "الصحافة العربية فى اسبوع" لعام ١٩٩٤.
- ٢ - شهريات السياسة الدولية ونشاط الأمم المتحدة لعام ٩٤ العدد ١١٧-١١٨-١١٩.

حقل التجارب الذى يتم فيه اختبار الإرادات والطموح وتم
توظيف كل شئ ابتداء من الصراعات الداخلية فى روسيا
والصراع بين الكونجرس والرئيس كلينتون والتضارب بين
المطالب الأمريكية والأوروبية وضياع الأمم المتحدة بين الاثنين
وهو تضارب أثار حيرة البعض وأن كان يمكن تفهمه - دون
قبوله طبعا - فى ظل ما طرح سابقا عن الموقف الأمريكى
واستراتيجيته الجديدة.

استمرار خيانة البوسنة

قبل أن ينتهى عام ٩٣ وجه الجنرال الفرنسى "بريمكون"
قائد القوات الدولية إنتقادا إلى سياسة الأمم المتحدة والمجموعة
الأوروبية فيما يتعلق بالنزاع فى البوسنة، مشيرا إلى أن القوات
الدولية المتوفرة تشكل ربع القوات اللازمة لحماية المناطق
الأمنة. وطلب إعفائه من منصبه وتم تعيين الجنرال البريطانى
مايكل روز خلفا له. كذلك استبدل بطرس غالى مندوبه الخاص
السابق وعين بدلا منه اليابانى "اكاشى". ثم بدأ العام بتصريح
لوزير الخارجية الأمريكى أكد فيه أن حلف الأطلنطى (الناتو)
يستعد لشن غارات جوية ضد مدفعية الصرب حول سراييفو
وهو ما أكده الرئيس كلينتون أيضا، ولكن سرعان ما تراجع
كلينتون عن دعوته للعمل العسكرى مفضلا التسوية السلمية
وذلك عقب اجتماعات الحلف فى بروكسل، بعدها رفض بطرس
غالى مقترحات الحلف بشن غارات جوية ضد مواقع الصرب
لفك الحصار عن توزلا وسربينتشا وعلق بطرس غالى موافقته
على طلب اكاشى لذلك .

وهكذا أمريكا تدعو إلى غارات جوية ثم تتراجع بعد
رفض الحلف ثم يعود الحلف ويقترح شن غارات فيرفض غالى.

هل يمكن تفسير هذه اللوغاريتمات بعيدا عن تقسيم الادوار
وتصارع المصالح والتي تصب - وصبت من قبل - لصالح
الصرب ١٩

كان تبرير د. غالى الدائم هو حرصه على أرواح جنود
الأمم المتحدة - نعم ماذا تساوى أرواح مسلمى البوسنة بجوار
أصحاب البارية الزرق ؟ - والحجة الثانية هي اعطاء الفرصة
للمفاوضات - طبعا إلى الابد - والحقيقة أن د. غالى كان
سيحظى باحترام أكبر من الجميع لو قال الحقيقة وهي أن هناك
توزيع أدوار وتعارض مصالح وأن الدول التى بيدها الأمر
والنهي لا تريد عمل ذلك الان وعندما تريد ستفعل بصرف
النظر عن انتظار موافقتى ولأنها لا تريد فليس أمامى سوى
الحديث عن التفاوض حتى يرتبوا أمورهم ويقرروا ماذا سيفعلون
عندها تبدأ الأمم المتحدة فى منح البرلكات وتمهيد الطريق
واعطاء الغطاء الدولى لتتأكد وظيفة الاسم المتحدة باعتبارها
أمريكا بالاساس تحقق بها ما تريد .

وهكذا أدت الارادات السياسية العاجزة حيننا والمشتتة
حيننا آخر والمناورة فى أغلب الأحيان إلى مواصلة صرب
البوسنة لاعمالهم الإجرامية والاستهانة بكل القرارات الدولية
والاستهزاء بالقوات الدولية والاعتداء على الملاذات الأمانة
الموضوعة تحت حماية الأمم لمتحدة وقواتها الدولية الهزيلة ! .

لم ينل البوسنيون المسلمون نصيبهم من الاعتداءات
الصربية وفقط ولكن من الكروات أيضا خاصة بعد فشل
بيجوفيتش وتودجمان فى الوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار
بين الكروات والمسلمين حتى أن بيجوفيتش طالب مجلس الأمن
(١/٢٨) ببحث العدوان الكرواوى على أراضى البوسنة. وقد
هددت القوى الدولية بفرض عقوبات اقتصادية ضد كرواتيا ما لم

تسحب قواتها من وسط البوسنة. وجدير بالذكر أن الصرب والكروات كانا قد توصلا إلى اتفاق تمهيدى للتطبيع بينهم فى بداية العام.

عندما وقعت مجزرة سوق سراييفو (٢/٥) تصاعدت حدة التصريحات الغربية ضد الصرب وعقد كلينتون اجتماعا لكبار مستشاريه لبحث سبل الرد على تلك المجزرة، وتحمس د. بطرس غالى وطلب من حلف الناتو اتخاذ قرار بالقصف الجوى وفعلا تم توجيه إنذار فى ٢/٩ بضرورة سحب الأسلحة الثقيلة لمسافة ٢٠ كم خارج العاصمة فى مدة اقصاها عشرة أيام وإلا تعرضوا للقصف. هنا بدأ التحرك الروسى لاحتواء الموقف واجهاض الضربة العسكرية وتزرعت روسيا بحجج قانونية حيث أعلن وزير خارجيتها أن مجلس الأمن هو فقط الجهة المسؤولة عن إصدار مثل هذه التحذيرات مؤكدا أن مثل هذه الضربة ستؤدى إلى عواقب وخيمة .

كان هدف روسيا من حديثها عن مسؤولية مجلس الأمن تعطيل الغارات وشل يد الناتو عن الحركة بعيدا عن المجلس لإدراكها صعوبة صدور مثل هذا القرار خاصة فى ظل رفضها ورفض الصين أيضا - عارضت اليونان واللورد اوين العمل العسكرى أيضا - وعندما رد مجلس الأمن بأن هذه الصلاحية قد سبق وأعطاهما المجلس لحلف الناتو بموجب القرار ٨٣٦ شرعت روسيا فى نشر ٨٠٠ جندى على مرتفعات سراييفو للحيلولة دون تنفيذ الغارات، فى الوقت الذى أعلن فيه الصرب موافقتهم على سحب الأسلحة بعد أن هدد زعيمهم بالانتقام من الأجانب - قوات الأمم المتحدة - اذا تمت الغارات وعليه تراجع الناتو وأعلن كلينتون أن الصرب استجابوا لمضمون الانذار ! وهكذا نجحت المناورة الروسية فى تعطيل الضربة الجوية بعدها

حاول الصرب كعادتهم اختبار الإرادة الدولية مرة أخرى وحلقت طائراتهم الهليكوبتر فوق منطقة محظور فيها الطيران فتصدت لها المقاتلات الأمريكية وأسقطت ٤ طائرات وكانت هذه أول رسالة حقيقية من الغرب للصرب توضح لهم أن هناك حدودا لتجاوزاتهم، وإن ظلت في حدود الردع ليبقى الوضع كما هو عليه إلى أن تتم التسوية.

في هذه الاثناء بات البلقان على حافة الهاوية حيث توترت العلاقات بين اليونان والبانيا خاصة بعد أن أعلنت البانيا استعدادها لوضع اراضيها ومطاراتها تحت تصرف قوات الحلف الأمر الذي أغضب اليونان. كما صعد الكروات هجماتهم ضد القوات البوسنية في بيهاتش وترافنيك وما جلاى وتدخلت الولايات المتحدة ونجحت في احتضان المحادثات بين الكروات والمسلمين، وتم التوصل إلى اتفاق يقضى بإقامة إتحاد كونفدرالى بينهم واتفقوا على المسائل الدستورية وتوزيع المناصب الخ. وبذلك تم تخفيف الضغط - ولو مرحليا - عن المسلمين بتحبيد الطرف الكرواتي وتم افشال محاولة التطبيع بين الصرب والكروات وكان ذلك بداية التحرك في اتجاه الحل الأمريكى.

جورازدى وأكاشى

تمثل جورازدى أهمية استراتيجية كبرى بالنسبة لصرب البوسنة والمسلمين فهي المدينة الوحيدة على نهر درينا وغير خاضعة كليا لسيطرة الصرب وتشكل تقاطعا هاما للطرق كما يوجد بها مصنع للأسلحة. لذلك كثف الصرب هجماتهم العسكرية ضدها بهدف احكام السيطرة عليها خاصة بعد إعلان الكونفدرالية بين الكروات والمسلمين. ومع تصعيد هجماتهم والأصرار على اقتحامها شنت قوات الناتو غاراتها على المواقع

الصربية ووجهت انذارا بضرورة سحب الأسلحة الصربية لمسافة ٢٠ كم. وتم تحديد يوم ٤/٢٧ كموعدا نهائى تستأنف بعده الغارات) لاحظ أن الغارات ليس الهدف منها تدمير الأسلحة الثقيلة - أو اضعاف الصرب - ولكن سحبها والمحافظة عليها) فى هذا الوقت نجح "أكاشى" ممثل الأمين العام للأمم المتحدة فى إحتواء الموقف والتحايل على الانذار - كما فعلت روسيا من قبل - وعقد اتفاقا خاصا مع الصرب لوقف إطلاق النار، وإعادة انتشار القوات الدولية المكلفة بحماية جورازدى (١٩٦ جندي بريطاني، ١٠ نروجين، ٧٦ اوكراني!)، وسحب الأسلحة الثقيلة لمسافة ٣ كم فقط بدلا من ٢٠ كم. واستجاب الصرب لذلك وعليه تصاعدت حدة الاتهامات بين الأمم المتحدة وحكومة البوسنة والتي اتهمت "أكاشى" بعدم الالتزام ببنود الانذار وشن بيجوفيتش هجوما عنيفا عليه وطالب بإقالته (لا أن د. غالى أكد أن أكاشى موضع ثقته، من جانبه إتهم "أكاشى" المسلمين بأنهم يبالغون فى المأسى لاكتساب التعاطف الدولى (كذا!) كما أنهم يستغلون الغارات الجوية ضد الصرب بشن هجمات عليهم لتحقيق مكاسب!

عند هذا الحد من التعقيد والتشابك تم الإعلان عن تشكيل مجموعة إتصال دولية من الاتحاد الأوروبى وروسيا وأمريكا بهدف الوصول إلى اتفاق لوقف إطلاق النار، والبدء فى محادثات بهدف تقسيم البوسنة إلى كيانين أحدهما صربى ويحصل على ٤٩٪ من الأراضى والآخر يضم الكروات والمسلمين ودخل "أكاشى" على الخط وأعلن أن صرب البوسنة على استعداد للتخلى عن جزء كبير من الأرض على سبيل التسويق للخطئة. بينما وصف بيجوفيتش الخطئة بأنها "خيانة وتكافئ المعتدى" خاصة وأن الخطئة لم تتحدث عن وحدة اراضى

البوسنة، وعدم جواز انضمام صرب البوسنة إلى صربيا وعودة اللاجئين وطالب بزيادة حصته من الأرض إلى ٥٨٪. حمل البعض الحكومة البوسنية مسؤولية تعطيل السلام كعادتهم دائما بإلقاء اللوم على الضحايا. وأرجع البعض موقف بيجوفيتش المتشدد (!) إلى الكونفدرالية مع الكروات بالرغم من أن هذه الكونفدرالية أساسا عنصر ضغط واحتواء وتحجيم للمسلمين.

في ٧/٦ أعلن بيجوفيتش أن حكومته لن ترفض الخطة السلمية الجديدة اذ ليس من الحكمة رفضها بصورة كلية ولا بد من مواصلة العملية السلمية رغم أن هذه لا تلبي المطالب التي تقدمت بها حكومة البوسنة .

وبالرغم من إعلان البوسنة هذا واصل الصرب تعنتهم وتحديهم للمجتمع الدولي بعد أن اختبروا هشاشته وتخاذله، خاصة وان خطة السلام المطروحة غاب عنها مبدأ قانوني هام وجع الغرب به رأس العالم كله عند اختلال الكويت وهو عدم مكافأة المعتدى على عدوانه، ومثلما سطرى الصرب على أرض البوسنة قاموا بعملية سطو على مستودع للأسلحة الثقيلة تابع للأمم المتحدة ونالوا على ذلك بضعة غارات جوية أعلنوا على إثرها استعدادهم لإعادة كافة الأسلحة المسروقة . ولاشك ان استهانة الصرب بالغارات الجوية نتيجة لقلة فاعليتها كان يدفعهم إلى التعنت وإلى مواصلة العدوان.

تزامن مع رفض الصرب لخطة السلام وتلك الضربة الجوية قطع جمهورية صربيا والجبل الأسود (يوغسلافيا الجديدة) علاقاتهم السياسية والاقتصادية بصرب البوسنة لدفعهم إلى قبول خطة السلام بعد فشل الوسيط الدولي "ثور فالدشتو" في اقناعهم. وهنا بدأ الضغط الفعلي على الصرب خاصة وأن

الاتصالات الأوروبية والأمريكية كانت قد بدأت مع ميلوسيفيتش رئيس صربيا لاغراءه للضغط على الصرب كما أعلنت روسيا أنها ستوافق على رفع الحظر عن البوسنة إذا ما رفض الصرب خطة السلام وهو ما لم يحدث. وبالرغم من أن قرار يوغسلافيا الجديدة بقطع علاقاتها بصرب البوسنة قد أحدث ردود فعل غاضبة لديهم وداخل الكنيسة الصربية التي أعلنت وقوفها إلى جانب صرب البوسنة وطالبت بعودة العلاقات مرة أخرى، فإن ميلوسيفيتش مهندس الحرب في يوغسلافيا السابقة والأب الروحي لكارادزيتش سفاح البوسنة كانت له حسابات أخرى. أهمها رفع الحظر المفروض على بلاده وتحسين صورته أمام الغرب وتلقت روسيا هذه الخطوة مسعاها لدى مجموعة الاتصال لرفع الحظر عن يوغسلافيا الجديدة، ولكن اصطدم هذا المسعى بالرفض الأمريكي لعدم وجود ضمانات تؤكد توقف بلجراد عن تقديم المساعدات والدعم لصرب البوسنة فعلا. ولتجاوز هذه العقبة نشأت فكرة نشر مراقبين على الحدود وهو ما رفضت صربيا أولا ولكنها عادت واستجابت لطلب روسيا. وبناء على ذلك وافق مجلس الأمن وأصدر ثلاث قرارات بتخفيف الحظر على يوغسلافيا الجديدة ومراجعة ذلك دوريا، كما وعدت صربيا بدفع صرب البوسنة لقبول خطة السلام بشرط رفع الحظر نهائيا. وهكذا وضعت صربيا أقدامها على طريق المساومة وتحقيق مصالحها هي أيضا وعلى ثمار الخطة الدولية للسلام وتأكيد دورها مثلما تؤكد الدور الروسى من قبل.

أما صرب البوسنة فبعد ٢٤ ساعة من صدور القرار قاموا بشن الهجمات على المدن البوسنية كما رفض برلمانهم خطة السلام في استفتاء شهد له بعض المراقبون بكثافة الاقبال وجاءت نسبة الرفض ٩٦٪. وأن كان هذا لم يمنع كارادزيتش

من استخدام أسلوب "العصا والجزرة" كالمجتمع الدولي الغربى، وأعلن استعداده لتقديم تنازلات لصالح الاتحاد بين الكروات والمسلمين مع التهديد بخطر أفراد القوات الدولية واسقاط طائرات الأمم المتحدة اذا تم رفع الحظر عن البوسنة، كما هدد بحرمان المسلمين من كافة سبل الحياة ما لم ترفع صربيا حصارها عن صرب البوسنة. فى نفس الوقت أكدت المفوضة العليا لشؤون اللاجئين (٩/١) تزايد عمليات التطهير العرقى ضد مسلمى البوسنة.

البوسنة بين الكونجرس وكلينتون

فى ظل الصراع بين الديموقراطيين والجمهوريين المسيطرين على الكونجرس ورغبتهم فى احراج كلينتون وتأكيد عجزه. تم توظيف البوسنة أيضا فى هذا الصراع، حيث واصل الكونجرس ضغطه وتصويته فى اتجاه رفع الحظر من مسلمى البوسنة وصدرت قرارات كثيرة بذلك. إلا أن كلينتون واجهها بالرفض والاعتراض خاصة وأنه يملك صلاحية ذلك، وأن كان قد أعلن أنه سيوافق على رفع الحظر اذا رفض صرب البوسنة خطة السلام ولم يحدث ذلك.

عندما وافق مجلس الشيوخ على اقتراح بتوجيه دعوة إلى كلينتون برفع الحظر عن البوسنة من جانب واحد اذا ما رفض الصرب خطة السلام أبلغ كلينتون المجلس أنه سيطلب ذلك من الأمم المتحدة. إلا أن الأمم المتحدة هددت بسحب قواتها اذا حدث ذلك ولاشك أن التهديد الدائم بسحب القوات الدولية من قبل الأمم المتحدة وأمينها العام يشكل عنصر ضغط على مسلمى البوسنة وافقد الأمم المتحدة مصداقيتها بل وضعها فى موضع الشكوك. كذلك عبرت بريطانيا عن عدم ترحيبها بالموقف

الأمريكي يقولها أنها ستمتنع عن التصويت في حالة الاقتراع على رفع الحظر عن مسلمي البوسنة لكنها لن تستخدم الفيتو، وأعلن مسؤول روسي صراحة أن مطلب مسلمي البوسنة بإنشاء دولة موحدة في البوسنة هو مطلب لا يقبله المجتمع الدولي. ومع استمرار ضغط الكونجرس في اتجاه رفع الحظر - خاصة وأنه يفضل ذلك عن المشاركة بجنود أمريكيين في البوسنة - وقرب موعد الانتخابات لمجلس الشيوخ أعلن كلينتون أنه سيعرض على مجلس الأمن في نهاية أكتوبر مشروع قرارا لرفع الحظر عن البوسنة وفي حالة الرفض ستتخذ أمريكا إجراءات من جانب واحد لتسليح البوسنة. وقد قوبل هذا الاقتراح بالاعتراض من قبل الأطراف الأوروبية وروسيا المشاركين في القوات الدولية وتحدث بعضهم عن سحب القوات الدولية من البوسنة وأعلن البعض أننا لا نستطيع مساعدة أطراف لا تريد الوصول إلى حل. مساويا بذلك بين القاتل والقَتِيل بين الغاصب والمغتصب بين الجلاذ والضحية ومتجاهلا ما يحدث على أرض الواقع فعلا. الأمر الذي يضعهم في موضع الشبهات والتواطؤ مع الصرب.

ولان الانتخابات على الأبواب والكونجرس يواصل ضغوطه بات من الصعب على كلينتون التراجع عما وعد به كما وأنه يخشى رفض مجلس الأمن لاقتراحه أو اغضاب حلفاءه. لذلك اتخذ كلينتون قرارا وسطيا بوقف مشاركة أمريكا في تنفيذ الحظر على البوسنة وأصدر أوامره بتحويل مسار السفن المتجهة إلى البوسنة وكرواتيا لتشارك في الحظر.

وبرغم ضعف القرار وقلة تأثيره حيث تفتقد البوسنة السواحل أصلا أحدث هذا القرار رد فعل عنيف داخل روسيا "المتلكة". فأصدر برلمانها قرارا بأغلبية ٢٧١ صوتا مقابل ٣ اصوات دعى فيه الرئيس يلتسين إلى اتخاذ إجراءات لتحديد ما

أطلقوا عليه "الخطوات المدمرة" التي اتخذتها أمريكا في البوسنة. وألمح رئيس لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان الروسى أن بلاده قد تقدم على إرسال أسلحة إلى صرب البوسنة. وكأنها لا ترسل فعلا. فقد ترددت انباء أن الجيش الروسى افرغ كل المخازن التي كان يملكها فى ألمانيا الشرقية وأرسلها إلى الصرب وأنهم حصلوا أثناء الحظر أيضا على ما يقرب من ٩٢ دبابة و ٨٢ قطعة مدفعية، لكن لا مانع من أن تغضب روسيا للقرار الأمريكى عديم الجدوى وأن تستخدم الفيتو لأول مرة منذ ظهور جورباتشوف وتفكك الاتحاد السوفيتى ضد قرارا تقدمت به الدول الإسلامية ودول عدم الإنحياز يقضى بحظر نقل الوقود من جمهورية صربيا إلى صرب البوسنة وأن يقوم مراقبون دوليين بالأشراف على ذلك كما استخدمت روسيا "الفيتو" ضد صدور بيان من مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبى يدعو الصرب إلى إنهاء القتال حول "بيهاتش".

وهكذا صارت البوسنة ملعبا للجميع يمارس فيه كل طرف فنونه ومهاراته مستخدما كل كروته لتحقيق مصالحه حتى أن كارتر أيضا وجد الفرصة سانحة لعرض خدماته ووساطته والتي ستصيب لصالح الديموقراطيين فى حال نجاحها وتوصل إلى عقد اتفاق هدنة بين الأطراف المتصارعة والعودة إلى التفاوض. وبرغم أن المراقبين اجمعوا على هشاشة هذا الاتفاق وأن صرب البوسنة واصلوا انتهاكهم له بل واصلوا حالة التعبئة العامة فى شمال البوسنة بدعوى مواجهة ما وصفوه بالعدوان الكرواتى فقد مهد كارتر الطريق أمام كلينتون لانجاز الاتفاق الأخير. وبرغم بقاء الحال كما هو عليه بالنسبة لشعب البوسنة الذى تعرض طوال الثلاث سنوات السابقة للقتل والتشريد

واستمرار الاداء الغربى أيضا على ما هو عليه تقريبا فقد تأكدت خلال العام بعض الحقائق وهى :

١- تأكيد أهمية روسيا فى هذا الصراع وضرورة مراعاة لمصالحها بشكل أكبر خاصة وانها اثبتت انها الأكثر فاعلية حينما اوقفت الغارات على مواقع الصرب عقب مجزرة سراييفو بنشر قواتها على تلال سراييفو وحين استطاعت اقناع صرب البوسنة بفتح مطار توزلا بينما فشلت جهود الأمم المتحدة والقوات الدولية فى ذلك الأمر الذى وصفه البعض بأنه صفقة قوية للأمم المتحدة وقد عبر يلتسين صراحة عن ذلك حين أكد أن السياسة الروسية لم تعد تفتقد روح المبادرة كالسابق وأنها بعد أن حققت نجاحا ضخما فى البوسنة ستطرح أفكارا محورية فيما يخص المشاكل العالمية.

٢- تأكيد الدور الفعال لحلف الأطلسى فيما يخص الأمن الأوروبى خاصة حين شرع فى تنفيذ غاراته الجوية المؤثرة على مواقع الصرب. وبالرغم من محدودية هذه الغارات وعدم كفايتها خاصة وأنها كانت بهدف سحب الأسلحة الثقيلة لا تدميرها إلا أنها أكدت كذب كل الادعاءات السابقة عن صعوبة القيام بعمل عسكري ضد مواقع الصرب والتحجج بضرورة وجود موجهين أرضيين ألخ وأكدت أيضا أن مثل هذا الاجراء وتلك الغارات لو كانت قد تمت منذ وقت مبكر لاختلفت النتائج فى البوسنة عما هى عليه الآن ولانتهت مأساة هذا الشعب قبل حدوث كل هذه المآسى والجرائم فى حقه أو كانت قد حدثت بدرجة أقل حدة وأكثر إنسانية!! .

٣- تأكيد هامشية الدور الأوروبى ومحدوديته وإن كان قد لعب دورا فيما يتعلق بالضربات العسكرية ولجنة الاتصال

وهو دور استطاعت جمهورية صربيا أيضا أن تحصل على مساحة تساويه !

٤- تأكيد دور الولايات المتحدة وأهمية تواجدها في أوروبا خاصة منذ توقيع اتفاق قيام الكونفدرالية بين الكروات ومسلمي البوسنة وهي الكونفدرالية التي مهدت الطريق أمام خطة لجنة الاتصال بتقسيم البوسنة ودارت على أساسها المفاوضات والتي مهددت لأمريكا الدخول على خط المفاوضات. ٥- تؤكد لأطراف الصراع بأن الحسم العسكري لصالح أى طرف هو عملية مستحيلة خاصة في ظل تدخل الحلف الأطلنطي ضد صرب البوسنة ومنعهم من تحقيق مكاسب جديدة واستمرار الحظر على مسلمي البوسنة بحيث بات تعديل الأوضاع على الأرض عسكريا هو أمر صعب المنال ما لم يتدخل عنصر جديد والملاحظ أن المسلمين عموما هم الطرف الخاسر في هذا الأمر كله وأن كانوا لم يخسروا أكثر مما خسروا.

الفصل العاشر

الصرب

والتلاعب بالمجتمع الدولي

لم يقتصر سعى مجموعة الاتصال* على استرضاء صرب البوسنة لقبول خطة السلام بادخال تعديلات عليها بحيث يمكنهم اقامة اتحاد كونفدرالى مع جمهورية صربيا - وهو تعديل وصفته حكومة البوسنة بأنه هراء كما رفضه كليفتون معلنا أن بلاده تتمسك بوحدة أراضي البوسنة ١ - بل استجابت للمناورة الصربية الداعية إلى وساطة الرئيس كارتر - لكسب الوقت - والتي انتهت بالاتفاق على وقف اطلاق النار واعطاء الأطراف هدنة مدتها أربعة أشهر يعودون خلالها إلى مائدة المفاوضات وقد تعطل هذا الاتفاق وقيل أن السبب هو عدم انسحاب القوات البوسنية من جيل ايجمان الاستراتيجى واتهمت حكومة البوسنة مجموعة الاتصال بالازعان لمطالب الصرب.

مع فشل مجموعة الاتصال فى اقناع قادة الصرب بقبول خطة السلام المقترحة والمعدلة ازداد التوتر بين المسلمين والكروات خاصة فى مدينة موستار. وهو توتر تم احتواءه بالموافقة على التحكيم الدولى لانقاذ الاتحاد الكونفدرالى واعقب ذلك تشكيل قيادة مشتركة بينهم لمواجهة الاعتداءات الصربية.

انتهكت صربيا الخطر الدولى وزودت صرب البوسنة بالأسلحة والمؤن كما رفضت الحكومة البوسنية اقتراحا فرنسيا بعقد مؤتمر دولى لان ذلك يعنى البداية من نقطة الصفر واستطاعت قواتها انتزاع مواقع استراتيجية من الصرب فى شمال البوسنة وحول العاصمة وردت الميلشيات الصربية على تلك الانتصارات يقصف جورازدى وموستار واعترفت الأمم

* اعتمدت على :

- ١ - نشرة المحروسة السبوعية "الصحافة العربية فى أسبوع لعام ٩٥.
- ٢ - شهریات السياسة الدولية ونشاط الأمم المتحدة لعام ٩٥ العدد ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢.

المتحدة بفشلها في وقف اعتداء الصرب بينما طالبت أمريكا المجتمع الدولي بالضغط على مسلمي البوسنة لمنعهم من اشعال حرب واسعة في البلقان ! وبدأ الحديث عن سحب القوات الدولية وقد لوحظ أن مثل هذه الضغوط والتهديدات بسحب القوات الدولية كانت تتكرر كلما حققت القوات البوسنية انتصارات عسكرية.

وهكذا لم تسفر الهدنة التي انجزها كارتر عن وقف اطلاق النار بشكل فعلى وحقيقى وكانت اقصى انجازاتها وصول بعض المساعدات لمسلمي البوسنة بينما واصل الصرب قصفهم الوحشى لسراييفو وبيهاتش وعادوا مرة أخرى واستولوا على الأسلحة الثقيلة من مستودعات القوات الدولية وعندما وجه الناتو انذاراته للصرب وحاول التصدى لهذه التجاوزات استولى الصرب على افراد القوات الدولية ذاتها ونشأت أزمة الرهائن وهدد الصرب باستخدامهم كدروع بشرية اذا ما تعرضوا لهجوم الناتو وأصبحت صورة هؤلاء الجنود الموثوقين بالسلاسل والمصلوبين على بوابات المواقع الصربية دليلا جديدا على استهانة الصرب بالمجتمع الدولي الذى ظهر عجزه امامهم ولم يكتفى الصرب بذلك بل واصلوا هجماتهم على سراييفو مستخدمين الدبابات لأول مرة ورفض مجلس الأمن القيام برد عسكري ضد الصرب وقوبل هذا القرار بانتقادات حادة من واشنطن وحكومة البوسنة واعتبر كلينتون أن الأمم المتحدة ارتكبت خطأ برفضها الأمر بشن ضربات جوية على صرب البوسنة. ومع ازدياد تعنت الصرب وتهديدهم لحياة الرهائن نفذ حلف الناتو تهديده وشن غارات جديدة على مستودعات الذخيرة التابعة للصرب وردت القوات الصربية على ذلك بقصف

هستيرى على المناطق الآمنة واحتجزت المزيد من أفراد القوات الدولية واقتادتهم إلى أماكن محتمل الهجوم عليها من قبل الناتو. هدد زعيم صرب البوسنة بأنه لن يتم الإفراج عن الرهائن ما لم يتعهد الناتو بوقف غاراته واجمع المراقبون على أن المجتمع الدولي يدور بأزمة البوسنة فى حلقة مفرغة. وطالب البعض منهم بأن يتم ترك أهل البوسنة - مسلمين وصرب وكروات - ليحلوا مشاكلهم بأنفسهم على أن يتم رفع الحظر عن مسلمى البوسنة وربما يرجع هذا الطلب إلى بعض الانتصارات التى حققتها القوات البوسنية والكرواتية. وهى انتصارات دفعت المجتمع الغربى إلى توجيه نداءات تدعو إلى وقف الهجوم البوسنى على مواقع الصرب وقد وصفها وزير خارجية البوسنة بأنها نوع من النفاق خاصة وقد تم ترك حصار سراييفو ثلاث سنوات.

كرد فعل على تلك الأحداث اتفق حلف الأطلسى ممثلا فى وزراء دفاعه والاتحاد الأوروبى على تشكيل قوة تدخل سريع متعددة الجنسيات استجابة لاقتراح فرنسى بريطانى بينما رفضت أمريكا المشاركة فى تلك القوة ووافق مجلس الأمن على هذا الاقتراح - امتنعت روسيا والصين عن التصويت - خاصة بعد أن اعترفت الأمم المتحدة بعجزها عن حماية الأماكن الآمنة بسبب رهائنهما لدى الصرب. فى نفس الوقت نجحت الوساطة التى قام بها رئيس صربيا ميلوسيفتش فى الإفراج عن الرهائن وقيل أن هذا تم فى إطار صفقة سرية تتوقف بموجبها غارات الناتو وإن كان د. بطرس غالى نفى ذلك.

مع نجاح القوات البوسنية فى اختراق حصار سراييفو والاستيلاء على ١٥٠ كم حول العاصمة تدخل مجلس الأمن

ودعا إلى وقف إطلاق النار وحدد بيجوفيتش شروطاً وهي رفع الحصار عن سراييفو وقبول الصرب لمشروع السلام الدولي. تعثرت محاولة وقف إطلاق النار الثانية خاصة بعد أن شدد الصرب هجماتهم على سربينتشا وقد أرجعت رويترز تعثر الجهود السلمية بسبب العروض السرية التي قدمها مسؤولو الأمم المتحدة للصرب وكانت الأهرام قد تحدثت نقلاً عن نيويورك تايمز بأن هناك رسالة سرية بعث بها إكاشي إلى الصرب أكد فيها أن قوة التدخل السريع لا ينبغي اعتبارها تهديداً للصرب وقد تعرض إكاشي بسبب هذه الرسالة إلى هجوم من أمريكا على لسان المندوبة الأمريكية في الأمم المتحدة مؤكدة أن الولايات المتحدة سيعتريها القلق إذا ظهر أن مهمات الرد السريع سوف لا تختلف عن القوات الدولية.

شدد الصرب من هجماتهم على مدينة سربينتشا حتى سقطت في أيديهم في ١١/٧/٩٥ وفشلت غارات الأطلنطي في الحيلولة دون سقوط المدينة.

أدان مجلس الأمن بشدة الهجوم الصربي كالعادة. وطرحت الولايات المتحدة والدول الأوروبية مشروع قرار يطلب من الأمين العام استخدام "جميع الموارد" التي لديه لتستعيد سربينتشا مكانة الملاذ الآمن !! ولكن "إكاشي" أعلن أن هذا غير ممكن وأن الطريق الوحيد هو استئناف المفاوضات.

عقب نجاح الصرب في اقتحام سربينتشا وحيرة المجتمع الدولي في التعامل مع الحدث بدأ الصرب هجومهم على منطقة زيبا الأمنة وطالب زعيم صرب البوسنة القوات المسلمة بتسليم أسلحتها والاستسلام الفوري ورفض إجلاء السكان مع توجيه تحذيراته إلى قوات الأطلنطي وأن كان قد أبدى استعداداً بمبادلة جورازدي بأراض من العاصمة سراييفو.. وكانت روسيا قد

اقترحت تنازل شعب البوسنة عن الملاذات الأمنة مقابل وقف الهجوم الصربى.

أدى سقوط المناطق الأمنة فى أيدي الصرب إلى ردة فعل عنيفة داخل اطراف المجتمع الدولى خاصة فرنسا التى كانت أول من اقترح انشاء قوة تدخل سريع لحماية افراد القوات الدولية عقب أزمة الرهائن حيث وجه شيراك نداءه إلى الديموقراطيات الغربية بضرورة التصدى للصرب ولو أدى ذلك إلى استخدام القوة العسكرية مشيرا إلى أن محاولة استرضاء الصرب الآن تشبه محاولة أوروبا استرضاء هتلر - وهى محاولات باءت بالفشل ولم تمنع هتلر من اجتياح أوروبا - وهدد بسحب القوات الفرنسية اذا لم تستجب بريطانيا وأمريكا لهذا الطلب.

أنشغلت أمريكا والدول الأوروبية بتسوية خلافاتهم حول هذه النقطة خاصة بعد أن هاجمت فرنسا أمريكا وظهر تباين بين الاثنين فى سبل معالجة الأزمة حيث طالبت فرنسا بمشاركة قوات أمريكية وألمانية فى الدفاع عن جورازدى بعد ذلك اجتمعت مجموعة الاتصال بلندن وشارك فى هذا الاجتماع حلف الاطلنطى والوسيط الأوروبى "كارل بيلت" الذى حل محل أوين وتمخض هذا الاجتماع عن قرارا هزيل لا يخلو من العجز وظهر منه عدم اتفاق الأطراف على رأى واحد، وأن كان قد وجه تحذيرا للصرب بأنهم سيتعرضون لضربات جوية اذا ما هاجموا جورازدى أو جنود القوات الدولية وهذا يعنى أن ما سقط قد انتهى أمره.

رحبت الولايات المتحدة بقرارات المؤتمر وأعلن كلينتون استعداد بلاده القيام بكل ما تستطيع لاحباط هجمات الصرب واحلال السلام فى البوسنة ولا ندرى كيف بينما يرفض

الاشتراك في قوة التدخل السريع. من ناحيتها هاجمت روسيا اقتراح استخدام القوة ووصفت المؤتمر بالفشل في تحقيق اجماع على قرارته، واستراحت بريطانيا لنتائج المؤتمر خاصة وأنها من البداية ربطت القيام بعمل عسكري ضد الصرب بمشاركة أمريكا. أما فرنسا فقد رأت في قرارات المؤتمر مزيجا من الطريقة الفرنسية والأمريكية القائمة على تحديد خطوط حمراء للصرب لا يجب تجاوزها بعد أن فعلوا ما فعلوا ! أما حكومة البوسنة فقد اعتبرت قرارات المؤتمر ضوء أخضر للصرب لمواصلة عدوانهم وتعنتهم مؤكدة أن ذلك لن يمنع الصرب من اقتحام جورازدى.

والملفت للنظر أنه عندما وجهت أمريكا وفرنسا وبريطانيا تحذيرا لصرب البوسنة بشأن غارات عليهم اذا هاجموا جورازدى صدر بيان من الأمم المتحدة يؤكد ان الأمين العام هو الذى يملك صلاحية الأمر بتوجيه ضربات جوية وهو أمر يتنافى مع ما سبق وأعلنه مجلس الأمن ردا على الحجج الروسية فى العام الماضى من أنه خول حلف الأطلنطى صلاحية اتخاذ القرار والثلاث دول تنتمى لحلف الأطلنطى. فهل لأن التحذير لم يصدر من حلف الأطلنطى ذاته كان رد فعل الأمين العام هو هذا البيان؟! لا شك أنه أمر يثير الدهشة والعجب ولكن متى كانت أزمة البوسنة خاليه من مثل هذه المفارقات ؟ !

الكروات والحل الأمريكى

شكلت أزمة الرهائن وماساة الملاذات الأمانة نقطة تحول فى موقف القوى الغربية الفاعلة خاصة فرنسا وأمريكا وتعددت وسائل الضغط على صرب البوسنة لدفعهم إلى قبول خطة السلام داخليا وخارجيا واتخذ هذا الضغط صدورا متعددة. فمن

جانبها قطعت جمهورية صربيا علاقاتها بصرب البوسنة كما سبق ذكره وقرر الناتو توسيع نطاق غاراته في حالة مهاجمة الصرب للمدن الآمنة كما قرر مجلس النواب الأمريكي بأغلبية كبيرة رفع الحظر عن البوسنة من جانب واحد. وبالرغم من أن كلينتون أكد أنه سيعترض على القرار وسيحشد كل إمكانياته لإلغاء أى فاعلية لهذا القرار فإن موقف الكونجرس الأمريكي شكل عنصر ضغط نفسى على الصرب خاصة وأن صمود كلينتون أمام الكونجرس لن يكون أبديا. وأخيرا جاءت عاصفة الكروات لتكون اللبنة الأخيرة فى مسلسل الضغط على الصرب فى اتجاه الموافقة على خطة السلام وبداية التمهيد العلنى والفعلى للتدخل الأمريكى.

اجتاح الكروات منطقة "كرايينا" وتم الاستيلاء على عاصمتها "كنين" وسقط أكثر من ٨٠٪ من أراضي كرايينا فى أيدي الكروات. فى نفس الوقت نجحت القوات البوسنية فى اختراق الحصار على "بيهاتش". ونتيجة لهذه الهزائم تصدعت العلاقة بين رادوفان كارادزيتش وقائده العسكرى ميلاديتش وسعى كل منهم إلى عزل الآخر وتحميله مسؤولية ما حدث، بينما اتهمت المعارضة الصربية الرئيس "ميلوسيفتش" بالخيانة والتخلى عن الشعب الصربى خارج حدود صربيا.

وبينما المجتمع الدولى يطالب بإنهاء الهجوم الكروااتى و"أكاشى" مندوب الأمين العام للأمم المتحدة يعلن أن العاصفة الكروااتية أدت إلى حدوث كارثة إنسانية وتشريد الآلاف من صرب كرايينا !! أعلن كلينتون أن العملية الكروااتية سوف تساعد فى حل الصراع.

تعددت التفسيرات للعملية الكروااتية فرأى فيها البعض بداية صفقة صربية كروااتية تحصل بموجبها كروااتيا على

كرايينا مقابل تقسيم البوسنة والهرسك بين الاثنين وان كان سفير كرواتيا بالقاهرة نفى وجود أى نوايا سيئة وراء العملية الأخيرة ولكن من الصعب ان يؤخذ هذا الكلام على محمل الصدق.

خاصة فى ظل النزعة العملية التى يتمتع بها الكروات والتى اتضحت منذ بداية الأزمة وتجلت فى تعديل وتبديل التحالفات بما يحقق مصالح كروايتا. وأيضا فى ظل ما رددته المعارضة الكرواتية منذ عامين وأكثر عن وجود اتفاق صربى كرواتى بهذا المعنى لهذا من السهل قبول وتصديق هذا التفسير. واما البعض الآخر فقد اعتبرها محصلة للتسيق بين كرواتيا ومسلمى البوسنة لمواجهة الحظر الصربى المشترك ودفع الصرب إلى مائدة التفاوض والقبول بالحل المطروح والمخ البعض الآخر إلى معرفة أمريكا مسبقا بتلك العملية. والاكيد أن عاصفة الكروات ما كان لها أن تتم دون الحصول على موافقة أمريكا راعية الاتحاد الكونفدرالى بين مسلمى البوسنة والكروات ودون مساندة وعلم ألمانيا شريطة ألا تتجاوز العملية الحد المسموح به فى حصة الأرض التى ستمنح للاتحاد الكونفدرالى وفقا لخطة السلام المقترحة. والأكيد أيضا أن هذه العملية فضحت كل الدعاوى السابقة عن عدم القدرة فى مواجهة الصرب بسبب تفوقهم العسكرى وصعوبة العمليات الخ... صحيح أن العملية نفذها ما يقرب من ١٠٠ ألف جندى كرواتى ولكن كان من الممكن ان تقوم القوات الدولية بمثل هذه العمليات الرادعه ويعدد أقل من ذلك لو كانت تريد خاصة فى ظل التفوق الجوى والتسليحي الذى يتمتع به حلف لساتو والذى ظهرت فاعليته عندما اراد الغرب اظهار تلك الفاعلية بل وكان من الممكن كما ان تسيطر القوات الدولية منذ بداية الأزمة على طريق برينشكو فى شمال شرق البوسنة وتقطع الطريق على

الامدادات العربية لصرب البوسنة هذا لو كان المجتمع الدولي الغربى والأمم المتحدة قد تحملا المسؤولية بجدية لمواجهة الجرائم التى يرتكبها الصرب.

لهذا نقول أن العملية الكرواتية هى جزء تمهيدى حقيقى لفرض السلام وفقا للتصور الأمريكى والذى بدأ فيما نعتقد منذ رعت أمريكا مفاوضات الاتحاد الكونفدرالى بين مسلمى البوسنة وكرواتيا لوضع حد لهذه الأزمة والحيلولة دون قيام دولة بوسنية موحدة. وقد ألمح تودجمان رئيس كرواتيا - مصدر الخطر القادم على البوسنة - إلى ذلك بقوله ان هدف الاتحاد الكونفدرالى هو مساعدة الغرب بعدم ايجاد دولة مسلمة مستقلة تماما فى أوروبا. وبإلها من تضحية كبيرة قامت بها كرواتيا لترفع عن كاهل أوروبا هاجس قيام دولة مسلمة فى قلب القارة !!.

أن الهدف من هذا الاتحاد بين الكروات والمسلمين فى ظل خطة التقسيم هو تهميش الوجود الفعلى والقانونى لدولة البوسنة وجعلها مجرد "محمية كرواتية" يتمتع فى ظلها مسلمى البوسنة بحضور رمزى فى ظل الرعاية الكرواتية مع تدبير سبل العيش لها من خلال المساعدات الدولية. ولعل الصورة التى تداولتها وسائل الإعلام والتى يقلد فيها الرئيس تودجمان وساما للرئيس عزت بيجوفيتش يبدو فيها وكأنه محافظ تابع لدولة كرواتيا أو رئيس دولة صغرى أمام رئيس دولة كبرى دليل على ذلك وهنا يصبح السؤال عن مصير وموقع مسلمى البوسنة بين صربيا وكرواتيا سؤالا ينتظر إجابة فى المستقبل القريب.

عقب العاصفة الكرواتية تصاعد الاهتمام الأمريكى وبدأت أمريكا مساعيها لدى أطراف النزاع للحصول على تأييد من هذه الأطراف لخطة السلام الأمريكية المعدلة والتى تحفظت

روسيا على جوانبها العسكرية ودعت إلى التركيز على جوانبها السياسية وأن كانت تفاصيل الخطة لم تعرف في حينها.

تحرك هولبروك المبعوث الأمريكي في اتجاه أوروبا للحصول على موافقتها على المبادرة مؤكدا قبل رحيله أن بلاده لا تؤيد تقسيم البوسنة والهرسك أو تجزئتها بأي شكل من الأشكال على الرغم من منح الصرب حوالى نصف أراضيها. ويبدو أن تأكيد أمريكا على عدم تقسيم البوسنة كان رسالة مزدوجة تهدف إلى تشجيع المسلمين على قبول المبادرة الأمريكية والدخول في المفاوضات هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تؤكد لصرب البوسنة عدم موافقة أمريكا على استقلالهم استقلالاً تاماً أو انضمامهم إلى جمهورية صربيا وفقاً لما طرحته الخطة الأوروبية وهذا هو الخلاف الأساسى بين خطة أمريكا للسلام والخطة الأوروبية، حيث لا خلاف بين الخطتين فى حصه الأراضي لكل طرف وتحجيم دولة البوسنة.

فى نفس الوقت رفض رئيس البوسنة فكرة مقايضة جورازدى بأراض فى سراييفو كما رفض فكرة إدارة سراييفو من قبل الأمم المتحدة وأعلن موافقة على خطة التقسيم مع الاعتراف المتبادل بين البوسنة وصربيا وكرواتيا واشترط أن يكون رئيس جمهورية صربيا هو ممثل التفاوض وليس صرب البوسنة كذلك أوضح رئيس وزراء البوسنة بأن الخطة تحفظ الحد الأدنى من الحقوق للشعب البوسنى أما كارادزيتش فقد أعلن رفضه لاي حل يعطى الصرب أقل من ٦٤٪ من الأراضي!

اسندت الأمم المتحدة مسؤولية حماية جورازدى لقوات الناتو لردع الصرب كما وجه الناتو تحذيراً لهم بأنه طائرات الحلف ستتدخل اذا لم يحدث تطور على الصعيد السلمى وعلى الصرب ان يتحملوا النتائج. وكان هذا التحذير هو الأول من

نوعه الذى يحذر صراحة من رفض الحل السلمى ويربط بين الرفض واستمرار الغارات بعد أن كانت تحذيراته السابقة تطالب بوقف عملياتهم العسكرية وقطع. والملفت للنظر أن مصر فقدت حماسها الداعى لرفع حظر السلاح عن البوسنة وأعلن الرئيس مبارك أن مصر ستسحب قواتها المشاركة فى قوات حفظ السلام إذا تم رفع حظر السلام وهكذا تؤكد بكل الطرق والوسائل أنه لاسبيل إلا التفاوض والوصول إلى حل فى أسرع وقت ممكن بصرف النظر عن عدالة الحل وعن الجرائم التى تمت فى ظل رعاية المجتمع الدولى للمفاوضات.

مع قيام الصرب بارتكاب مذبة جديدة فى سراييفو كاختبار للإرادة الدولية هدد الرئيس بيجوفيتش بالإنسحاب من المفاوضات ما لم يتم الرد العسكرى المناسب على المذبة، وقام الحلف بشن غارات مكثفة لانقاذ التسوية ولأول مرة تحدث موافقة أمريكية أوروبية على تلك الغارات بعدها أعلن صرب البوسنة استعدادهم لتشكيل وفد للتفاوض حول المبادرة الأمريكية! كما أعلنوا موافقتهم على خطة مجموعة الاتصال (الخطة الأوروبية). ولأن الصرب لازالوا يرفضون الخطة الأمريكية واصلت قوات الناتو غاراتها ووصل عدد طلعات الحلف إلى ٢٥٠٠ طلعة جوية كما شاركت البحرية الأمريكية فى القصف بصواريخ توما هوك، وأكد قائد قوات الحلف أن التشكك فى حسم المنظمة الدولية والحلف خطأ فادح.

توصل وزراء خارجية البوسنة وكرواتيا وصربيا إلى اتفاق يضمن المبادئ الأساسية لحل الأزمة واتضحت معالم الخطة وتم الاتفاق على استمرار جمهورية البوسنة ضمن حدودها الحالية ولكن من خلال تقسيمها إلى كيانين بينهما اتحاد. ووصف بيجوفيتش هذا الحل بأنه دواء مر ولكن ليس مميت وأنه

قبل به حتى لا تتوقف غارات الأطلنطى. ومع تعهد الصرب بسحب أسلحتهم من حول سراييفو أعلن كلينتون أن البوسنة أصبحت أقرب إلى السلام من أى وقت مضى. وهكذا أصبحت أمريكا سيدة الموقف وبدأ التفكير فى إحلال القوات المتعددة الجنسيات محل القوات الدولية وأعلنت البوسنة رفضها فكرة تقسيم سراييفو وابدت رغبتها فى الانضمام لحلف الناتو لطمأنه الغرب ولتضمن لنفسها الحماية من الصرب والكروات أيضا اذا ما حاولو فيما بعد إستغلال اتحادهم مع البوسنة وتحقيق مكاسب جديدة خاصة وأن كرواتيا هى الطرف الوحيد الذى استفاد من كل ما حدث.

فى اتجاه ممارسة الضغط على الصرب والوصول إلى النسبة المقترحة فى التقسيم استولت القوات البوسنية والكرواتية على مساحة ١٥٠٠ كم ٢ وتم تحرير ٣ مدن رئيسية وأصبح نصف أراضى البوسنة تقريبا تحت سيطرة القوات المشتركة وواصل الجيشان البوسنى والكرواتي زحفهما فى اتجاه "بانيولكا" وهنا بدأت الضغوط الأوروبية والأمريكية أيضا لوقف الهجوم وطالبت القوات المشتركة بالتوقف على بعد ١٥ كم من مدينة بانيولكا حتى لا تختل المعادلة وحتى لا تغضب جمهورية صربيا التى لعبت دورا فى اتمام عملية السلام.

فى جنيف توصل الفرقاء المتنازعين إلى اتفاق رأى فيه البعض تحجيم لحلم صربيا الكبرى ووصفه البعض الآخر بأنه بداية متواضعة لحل الأزمة وأن كان قد تحامل على الطرف البوسنى (المسلم). وفى ظل الرغبة الأمريكية للوصول إلى حل سريع للأزمة واصلت أمريكا ضغوطها على الأطراف ونجحت الإدارة الأمريكية فى اقناع البوسنة بالمشاركة وسط تأكيدات بوسنية بمقاطعة المفاوضات اذا أصر صرب البوسنة على

الانفصال ووافق وزراء الخارجية الثلاثة على أن يكون للبوسنة رئيس واحد وحكومة مركزية تتولى تصريف أمور البلاد الداخلية والخارجية ووصف رئيس الوزراء البوسنى هذه المبادئ بأنها توفر الحد الأدنى للمؤسسات اللازمة لاستمرار البناء الشرعى للدولة البوسنية، وأكد بيجوفيتش أن هدفه هو الوصول إلى دولة موحدة وأن كان قد حذر فى نفس الوقت من اطماع كرواتيا فى بلاده. توصلت الأطراف إلى اتفاق لوقف إطلاق النار يبدأ سريانه فى ١٢/١٠ وأعرب رئيس وزراء البوسنة عن تفاؤله بإمكان تحقيق سلام بعد ما تفهم الصرب استحالة إقامة دولة صربيا الكبرى إلا أنه سرعان ما تفجر القتال فى اليوم التالى واستولت القوات المشتركة (البوسنية والكرواتية) على بلدة سانسكى شمال غرب البوسنة وتوجهوا إلى بانيولكا.

عقب ذلك بدأت مفاوضات الفرصة الأخيرة فى مدينة دايتون الأمريكية والتي استمرت ٢١ يوما بدا فيها أطراف التفاوض وكأنهم محتجزون لحين التوصل إلى اتفاق خاصة وان الولايات حددت موعدا نهائيا للمفاوضات يعلن بعدها فشل او نجاح تلك المفاوضات وهددت أمريكا بأنها سترفع يدها من المشكلة وستراجع وساطتها فى حالة الفشل وبالتالي لم يعد هناك مفر من الوصول إلى اتفاق. وبرغم ان الخارجية الأمريكية أعلنت أنه ليس هناك ضمان بنجاح تلك المباحثات فقد صرح بيجوفيتش أنه متفائل مؤكدا ان النواحي الدستورية المتعلقة بالأرض ستشكل محور المفاوضات وبالفعل توصلت الأطراف إلى اتفاق شامل تم توقيعه بالأحرف الأولى فى ٢١/١١ وأرجأ التوقيع النهائى ليتم فى باريس فى إشارة أمريكية لدور فرنسا خاصة فى الفترات الأخيرة وحتى يبقى لأوروبا دورا ولو شكليا خلال حفل التوقيع النهائى يخفف من مرارة فشلها السياسى

طوال الفترة الماضية فى حل الأزمة والذى لعبت أمريكا دورا فيه، قبل ان تلقى بثقلها السياسى، بعد أن نضجت الظروف وتتوصل إلى هذا الحل الذى يمثل ولا شك لطمه للاتحاد الأوروبى تؤكد فشله فى حل أول أزمة سياسية كبرى تواجهه بعد التوحد وايضا للأمم المتحدة التى تحولت إلى مجرد جهاز يصدر بيانات لا تتلائم مع الأزمة ولا مع المسؤولية التى وعدت بها العالم بعد حرب الخليج.

وتم التوقيع النهائى فى ١٤/١٢ بباريس وحضر حفل التوقيع خمسون من رؤساء الدول والحكومات ووزراء الخارجية. على رأسهم كلينتون الذى تعهد بالتزام بلاده بعملية السلام وجون ميجور رئيس وزراء بريطانيا الذى رحب بالاتفاق والمستشار الألمانى هيلموت كول الذى اعرب عن أمله ان يستقبل مواطنو البوسنة قوات السلام كاصدقاء ورحبت الصين واليابان بالاتفاق الذى أنهى اسوأ صراع شهدته أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية وكان ضمن المشاركين وزير الخارجية المصرى وممثلى مجموعة الاتصال الإسلامية خاصة وأنها ستتحمل جزء من تكلفة إعمار البوسنة وهى تكلفة قدرها رئيس البنك الدولى بمبلغ ٤,٩ مليار دولار لاصلاح اقتصادها فقط. وقدرها البعض الآخر بمبلغ ٦ مليار بينما ارتفع بها البعض إلى ١٠ مليار لإعادة اعمار البوسنة ككل وهذا هو الاقرب إلى الحقيقة وبالطبع سيبدأ صراع الشركات بعد أن يتوقف صراع المدافع والدبابات.

اتفاق السلام الملغم

توصلت الأطراف فى ظل الرعاية الأمريكية إلى اتفاق يحافظ على الدولة شكلا مع تقسيمها من الناحية العملية إلى

قسمين حيث أصبح للصرب عمليا دولة معترف بها على مساحة ٤٩٪ من أراضي البوسنة ولها برلمان محلي مقابل دولة كونفدرالية تضم الكروات والمسلمين على ما تبقى من مساحة البوسنة (٥١٪) ولهما برلمان مشترك اضافة إلى برلمان موحد يضم الجميع. كما اتفقا - كما قيل - على تشكيل رئاسة جماعية من ٣ أعضاء (صربي وكرواتي ومسلم) وهذا يذكرنا بالرئاسة الجماعية التي وضعها تيتو وتسببت في تفجير يوغسلافيا كما سبق واوضحنا وان كان لم يتوفر لنا القاعدة التي ستحكم عمل هذه الرئاسة الجماعية. واتفقا أيضا على استبعاد السياسيين المتهمين بجرائم الحرب وبقاء سراييفو موحدته ووقف العمليات الحربية وتحديد المناطق المنزوعة السلاح على أن يتم فصل القوات العسكرية في مناطق النزاع - المشتركة - بمسافة ٤ كم وعودة اللاجئين وسحب القوات وإعادة انتشارها والحد من التسليح خاصة الأسلحة الثقيلة ما لم يكن منعها وتلك نقطة خلاف بين أمريكا وأوروبا حيث تفضل أمريكا تسليح البوسنة تدريجيا حتى يمكنها الدفاع عن نفسها بعد انسحاب القوات الدولية المسؤولة عن تنفيذ الاتفاق بينما تتحفظ أوروبا على ذلك. كما اتفقا على تبادل الأسرى ونقل الصلاحيات من قوة الحماية الدولية إلى قوة الاشراف على تطبيق الاتفاق والبالغ عددها ٦٠ ألف تشارك أمريكا فيها بـ ٢٠ ألف جندي - ومن المعروف أن مصر ضمن الدول المشاركة في هذه القوة - اضافة إلى شرط هام وهو ضرورة التخلص من المجاهدين الذين تسربوا داخل البوسنة ويصل عددهم وفقا لتقديرات الاجهزة المخابراتية ٤٠٠٠ مقاتل ذو كفاءة قتالية عالية حيث بدأو تدريبهم على يد عناصر أمريكية أثناء الأزمة الافغانية ثم تمرسوا على فنون القتال هناك والتحقوا

بالبوسنة وبعضهم تعلم على يد نفس العناصر داخل البوسنة ذاتها.

ان هذا الحل الأمريكى الذى اعتمد سياسة الترهيب والترغيب والمرواغة مع أطراف الأزمة، حتى مع أوروبا ذاتها، مستخدما فى ذلك توجيه ضربات حقيقية وموجعة لصرب البوسنة بعكس ضربات الناتو السابقة هو حل تلفيقى ومؤقت ككل الحلول السابقة فى البلقان وبالتالى فإن قابليته للاستمرار مشكوك فيها ناهيك عن أنه مكافأة للمعتدى حتى وأن كان قد تم تحجيمه. وبالرغم من أن هذا الاتفاق الأخير يمكن اعتباره شهادة وفاة رسمية ليوغسلافيا السابقة وبالتالى فهو نهاية - أو تعطيل - لمشروع دولة الصرب الكبرى فى البلقان المنتكر خلف شعار بقاء يوغسلافيا موحدة إلا أنه لا يمكن اعتباره - أى الاتفاق الحل - شهادة ميلاد حقيقية لدولة البوسنة الموحدة بعد تقسيمها ولا بداية سلام حقيقى. فاتفاق السلام هذا لا علاقة له بأى شكل من الأشكار بالسلام العادل والحقيقى والنهائى بل هو اتفاق سلام ملغم ملئ بالثغرات التى يمكن استغلالها من قبل أى طرف ومرهون بتوازنات القوى الحالية والمستقبلية إلى أن تحين فرصة التعديل لتلك التوازنات أو تختل معادلة الاتزان التى يركز عليها الاتفاق.

فالاتفاق يركز على دعامين الأولي : هى ضعف صرب البوسنة الحالى بسبب الحصار الذى شاركت فيه صربيا ذاتها والضربات التى تلقوها من الناتو كما وأن رئيس صربيا هو الذى وقع الاتفاق ولازال الكثير من صرب البوسنة يرفضه وبالتالى سيعملون بكل جهدهم إلى افشاله متى تحين الفرصة. أما الدعامة الثانية فهى الاتحاد الكونفدرالى بين الكروات والمسلمين وهو تحالف قابل للانفجار فى أى وقت وخاصة فى ظل النزعة

البرجماتية (العملية) للكروات والتي تمارسها بغرض الحصول على مزايا مرحلية وايضا فى ظل صراع الاثنين على بعض المدن وخاصة موستار والتي من الممكن أن تكون هى سبب انهيار هذا التحالف وبالتالي انهيار السلام وبداية تحالفات جديدة للكروات مع الصرب ناهيك عن الصراع المحتمل تكراره بين الصرب والمسلمين فى مدينة سربينتشا وزيبا اللتان اصبحتا داخل نطاق جمهورية صرب البوسنة. ولتفادى هذا الصراع - خاصة فى حال عودة اللاجئين - لابد وان يمارس المجتمع الدولى ذاته ممثلا فى الأمم المتحدة والدول الراحية للاتفاق عملية التطهير العرقى بحيث تصبح كل منطقة خالصة تماما لمن يسيطرون عليها، وهذا يعنى تقسيم البوسنة فعليا إلى ثلاث دول. والمهم فى كل ذلك - من وجهة نظر الغرب - هو أن تبقى هناك منطقة تضم هؤلاء المسلمون بدلا من تشريدهم فى أوروبا وحتى لا يصبحوا فلسطينيو القارة.

من ناحية أخرى سيؤدى وجود أكثر من برلمان إلى حدوث تضارب وتصارع وخلل تشريعى يعيق الحكومة المركزية والبرلمان المركزى من ممارسة مهامه. فلكى يصدر من البرلمان الموحد أى قانون أو قرار لابد وأن يحصل على موافقه ٣٣٪ من نواب كل إقليم داخل البرلمان الموحد وفى حالة تعذر ذلك يتم إحالة الموضوع محل الخلاف إلى البرلمان الإقليمى والذي يجب أن يحظى فيه الموضوع محل الخلاف على موافقة ثلثى الأعضاء لكى يصبح نافذا. والسؤال هو ماذا لو أنه لم يحظى على تلك الموافقة ؟! إن هذا الموضوع بكل تأكيد سيحد من سلطة البرلمان الموحد وسينتج عن ذلك صراع وتضارب تشريعى وستكون هناك دولة داخل الدولة وسيؤدى هذا الوضع إلى التقسيم.

أما المشكلة الثانية التى ستواجه هذا الاتفاق فهى قضية اللاجئين الذين يجب أن يعودوا إلى ديارهم والتى أصبحت تحت سيطرة الآخر وتلك مسألة شديدة التعقيد والحساسية فى ظل ما جرى من مذابح وقتل طوال الأعوام الماضية وسيصبح الحل كما قلنا هو إعادة الفرز العرقى وإعادة التوسكين بالتبادل أى تقسيم البوسنة فعليا وانهيار هذا الحل ولكن إذا كان هذا الحل الأمريكى قابل للانفجار وسيؤدى إلى تقسيم البوسنة فى النهاية فلماذا عارضت أمريكا منذ البداية خطة أوين - فانس التقسيمية أيضا ؟! من الصعب طبعا أن تكون الاجابة المقنعة هى تخطيط الإدارة الأمريكية وعجزها.. ألخ فالأمر أعمق من ذلك وله علاقة برغبة أمريكا فى إذلال أوروبا وتأكيد عجزها واحتياجها الدائم لها إذا أرادت ان تحافظ على أمنها واستقرارها وأيضا تأكيدا لضرورة وجودها فى البلقان منبع القلق والحروب العالمية فى أوروبا وبالتالي تصبح مفاتيح استقرار أوروبا أمنيا وسياسيا بعد توحيدها فى يد أمريكا تديرها وقتما تشاء بعد أن أصبحت مفاتيح نموها واستقرارها الاقتصادى أيضا فى يد أمريكا بعد أن وضعتها على منابع النفط فى الخليج.

والمشكلة الثالثة التى تهدد اتفاق دايتون - باريس هى تعدد الانتهاكات لاتفاق دايتون - باريس منذ اللحظة الأولى حيث أطلق الكروات سراح "سافيتشاراجيتش" مجرم الحرب الذى ادين رسميا اضافة إلى إتباعهم سياسة الأرض المحروقة فى المناطق التى يرحلون عنها. كما أن روسيا منحت مجرم الحرب الصربى ميلاديتش حق اللجوء السياسى بالرغم من مطالبة مجلس الأمن جميع الأطراف بالتعاون مع المحكمة الدولية لتسليم هؤلاء المجرمين وفقا لنصوص الاتفاق.

أما اعقد المشاكل فهي تلك التي تتعلق بالمجاهدين والذين يطلق عليهم تارة المجاهدين الافغان وتارة الافغان العرب والذي تسربوا إلى البوسنة خلال الأعوام الماضية. هؤلاء هم الشغل الشاغل للإدارة الأمريكية ومصدر القلق الأعظم داخل البوسنة لان عملية واحدة من أحد هؤلاء المجاهدين - أو من مجاهد صربي بجلباب إسلامي !! - كفيhle بهدم هذا الاتفاق ودفع القوات الأمريكية - والدولية - إلى الانسحاب حتى لا تتكرر مآساتهم في لبنان. وبإلها من مفارقة ساخرة فقد أدى التقاعس الغربى طوال السنوات الماضية عن التدخل الحاسم لانتهاء الأزمة مبكرا خشية وجود دولة إسلامية كما يتوهمون إلى تدفق هذا العدد الكبير من المجاهدين المتمرسين على فنون القتال إلى البوسنة بل ونجاح هؤلاء فى استقطاب بعض البوسنيين إلى صفوفهم بعد نجاحهم فى العديد من عمليات القتال وبات من الصعب الآن خروج هؤلاء من البوسنة كما نص الاتفاق خاصة بعد أن أصبح لهم تواجد حقيقى داخل البوسنة وبعضهم تزوج بوسنيات واستقر به المقام.

وإذا كان بعض المجاهدون يخضع مباشرة لسيطرة الجيش البوسنى ويتحرك بالتنسيق معه خاصة فى منطقة توزلا فإن البعض الآخر لا يخضع لأحد بل واصطدموا بالقوات البريطانية وموظفوا الاغاثة الدولية خاصة فى منطقة زنيكا والمنطقتان ضمن القطاع الذى ستشرف عليه القوات الأمريكية - الشيطان الأكبر فى نظر هؤلاء المجاهدين بعد أن تدربوا على أيدى رجالها خارج البوسنة. وداخلها وتسربوا إليها منذ أواخر ١٩٩٢ - فهل لعب القدر لعبته وجاء نصيب أمريكا فى هذه المنطقة ؟ أم أنها عملية مقصوده بوصفها الأكثر دراية ومعرفة بهم ؟ وحتى يظلوا تحت رعايتها واشرافها بحيث تتولى

تصفيتهم أو إرسالهم إلى مكان آخر اذا كان فى ذلك ضرورة أمريكية !. عموما ستقع الحكومة البوسنية فى حرج شديد مع هؤلاء المجاهدين بعد أن أصبح لهم جميل فى عنقها من الصعب إنكاره خاصة وأنهم هم الذين هبوا لنصرتها بينما تخلص عنهم - ولازال - العالم المتحضر وسيكون ترحيلهم نكران لهذا الجميل. ولكن بقاءهم أيضا سيكون مصدر حرج للحكومة البوسنية التى تعهدت بترحيلهم ولكن إلى أين ؟ من سيقبل هذه الالغام المتحركة خاصة وأنهم مطلوبين فى بلدانهم ؟ وهل لو منحتهم الحكومة البوسنية الجنسية وهو احتمال وارد يرحب به بعض افراد الحكومة س يلتزموا بتعليمات الحكومة البوسنية أم سيحاربون الشيطان الأكبر والحكومة البوسنية ذاتها ويقضون على ما تبقى من حطام البوسنة كما حدث فى أفغانستان حين شاركوا فى القتال إلى جانب بعض الفصائل ضد البعض الآخر. هذا ما ستجيب عليه الأيام والأعوام المقبلة فى ظل هذا السلام الظالم والملغم.

الفصل الحادى عشر

البوسنة وتوظيف الإسلام

التاريخ الاوربي كما لاحظنا من الخلفية التاريخية ملئ
بالحروب الدموية العرقية والدينية التي تم توظيف الدين فيها.
فكثيرا ما اختلط الديني بالسياسي في العصور الوسطى والحديثة
أيضا وخاصة في فترات نشوء الدولة القومية فالدولة القومية
المعاصرة كما يقول وليد نويهض (١٠٦) تأسست اصلا على
قاعدة الفرز الديني / العرقي وهي لم تنهض سياسيا إلا بعد ان
تم الغاء التنوع والتعدد حيث ترى (الدولة القومية) ان التنوع
والتعدد (الديني/العرقي) يهدد وحدة الدولة وتماسكها التاريخي.
إذن الدولة القومية الأوروبية الحديثة هي دولة قائمة
على الفرز العرقي والديني، وعلى هذا الاساس هي دولة
عنصرية. ومن المهم هنا ان نفرق بين المد القومي الساعي إلى
التحرر والانعتاق من الاستعمار أو سيطرة قومية أخرى، والمد
القومي الفاشي العنصري الساعي إلى الهيمنة والسيطرة على
الآخر كما هو الحال في يوغسلافيا السابقة الآن. حيث تحول
بقايا الشيوعيين اليوغسلاف إلى قوميين فاشست وخاصة
الصربيين الذين اصبحت لديهم الرغبة - والقدرة - في استعادة
وأحياء مشروعهم القومي التوسعي وبسط سيطرتهم وهيمنتهم
على باقي القوميات خاصة القومية البوسنية بوصفهم الطرف
الاضعف الذي يمكن للصرب قضمه واحتواءه والسيطرة عليه
دون حدوث ردة فعل قوية ضدهم داخل أوروبا، خاصة اذا تم
اللعب بورقة الاسلام والاصولية الإسلامية الزاحفة على أوروبا
من خلال المهاجرين وتخويف أوروبا من عواقب ذلك،
وتذكيرهم بأن الصرب كانوا دائما هم المدافعين عنهم امام
العثمانيين مع استحضار ما في الذاكرة من حقائق تخص وقتها
وزمنها، اضافة إلى الاوهام والخرافات والاساطير الراسخة في
الذاكرة الجمعية والتي ساهمت ولا زالت تساهم في تأجيج

المشاعر ضد الاسلام والمسلمين فى الماضى والحاضر . وعندما نقول او هام وخرافات واساطير فنحن لا نجانب الصواب، فكثير مما تحويه الذاكرة الجمعية يحمل كثيرا من هذه الخرافات والاساطير والاكاذيب. ولدينا نحن ذلك ايضا فعلى سبيل المثال إذا تم ذكر كلمة "السلف" لابد وان تتبعها كلمة "الصالح" وكأن كل "السلف" هو بالضرورة "صالح"، كذلك اذا ذكرت كلمة الغرب لابد وان يتبادر إلى ذهننا كل الشرور، وكأن الغرب هو كتلة واحدة وشر مطلق وهذا أمر مخالف للحقيقة والعقل والمنطق. ومع ذلك لدينا من يروج لهذا والحال عند الصرب والغرب هكذا فإذا ذكرت كلمة إسلام فهذا يعنى الاتراك ويعنى تاريخ طويل من المآسى والمرارة، وهو أمر فيه قدر كبير من المبالغة "فالمناظر والرؤى التى تدعو للاسى والتى ما زالت كامنة فى الخيال الشعبى لشعوب البلقان المسيحية والتى تصور العثمانيين غزاة سفاحين متعطشين للدماء ما هى الا نتيجة للدعاية التى سادت يوم كانت الروح الصليبية هى الغالبة وكان الهبسبورج وباباوات روما هم عصب هذه الدعاية" (١٠٧) ومع ذلك فالغوغائيين والديماجوجيين لا يكفون عن ترديد هذه الخرافات وتلك الاكاذيب لدينا ولديهم ويتجاهلون كل ما هو ايجابى لدينا ولديهم فتضيع الحقيقة وتتسع الفجوة وتزداد العداوة وتشتعل الصراعات.

ولان الخيال الشعبى لا زال ملئ بهذه الصور فقد تم توظيف ذلك لخلق حالة من الكراهية ضد البوسنيين بوصفهم مسلمين بل وبوصفهم بقايا الاتراك او ممثلين لهم !. وفى ظل أزمة الواقع الصربى / اليوغسلافى ازدادت الرغبة العدوانية الصربية تجاه الآخر والتأكيد على انهم كانوا مضطهدين ايام الشيوعية - الجميع هناك يقولون ذلك - وشرع الصرب فى

تحقيق مشروعاتهم القومية التوسعية القديم باعتباره هو الحل لأزمته الخاصة. وكانت الخطوة الاولى لذلك هي التحذير من الخطر الإسلامى، وهنا التفتت الرغبة الصربية الساعية إلى "تدمير الحضور الإسلامى فى البلقان وقطع الصلات الاخيرة بين الاسلام كدين واوروبا كقارة على حد قول الباحث الصربى "الكسندر ييوفيتشى" (١٠٨).

مع رغبة أوروبا فى عدم قيام دولة اسلامية بالمعنى الذى يتصوره. وجد الصرب أذانا صاغية لما يرددونه، ساعدهم على ذلك بالطبع الصورة الكريهة والوجه القبيح للحركات الاصولية الارهابية المتأسلمة والتي صنعتها الغرب اصلا لخدمة اغراضه الخاصة فى ظل الحرب الباردة لمواجهة الاتحاد السوفيتى والتي لا زال يستثمرها البعض حتى بعد زواله خاصة أمريكا لتحقيق هدفين، الأول خلق عدو جديد يبرر استمرار تواجدها العسكرى فى مناطق العالم الملتهبة وبالتالى سيادة المنطق الأمريكى واستمرار الاحتياج لها. والثانى خلق حالة من الفوضى وعدم الاستقرار فى بعض المناطق لمنعها من الانطلاق واستكمال مشروعاتها الوحده كأوروبا الغربية أو انجاز مشروعاتها التنموية كما هو الحال فى منطقة آسيا و آسيا الوسطى وبعض البلدان العربية خاصة وان هذه الفوضى وهذا التفكيت يتيح للقوة الامريكية الفرصة فى فرض منطقها واستراتيجيتها وهيمنتها وقيادتها لهذا العالم وفقا لتصوراتها وأهدافها ومصالحها.

ومع تصاعد موجة الكراهية ضد الاقليات الإسلامية المهاجرة فى أوروبا والتي تسربت اليها الافكار الاصولية، تولد لدى أوروبا الميل إلى تصديق الدعاوى الصربية عن الاصولية الدينية فى البوسنة وهو أمر تعرف أوروبا اكثر من غيرها انه

غير صحيح وان البوسنة لن تكون دولة اسلامية اصولية بالمعنى الذى يروجون له. خاصة وأن وزير الشؤون الدينية البوسني " نفى عزم حكومته إقامة نظام إسلامي وقال أن هدف حكومة البوسنة هو اقامة دولة تسود فيها الحرية الدينية وتحترم طقوس العبادة للجميع " (١٠٩) وهو أيضا ما أكد عليه رئيس سلوفينيا بقوله " أن اوروبا تتأثر بالدعاية الصربية التي تروجها جمهورية الصرب والتي تصور المسلمين على أنهم اصوليون بالرغم من أنه لم يكن لهم قط اى روابط مع حركات اسلامية راديكالية فى الخارج وان الدول الغربية نسيت ان مسلمى البوسنة شعب اوروبى" (١١٠) اضافة إلى ان الباحث غزافيية يورال (١١١) لاحظ اثناء قيامه بدراسة عن مدى تشبث الناس بالدين ان مسلمى البوسنة والهرسك يأتون فى آخر القائمة وان الحس الدينى الضعيف تمت تنميته بسبب رد الفعل تجاه عدائية سكان البلاد غير المسلمين والتأثير القوى للمسلمين الاصوليين طبعاً بعد تسربهم إلى البوسنة.

وبالرغم من ان الغرب يعرف ذلك فإنه اقتنع بخطر قيام دولة اسلامية وهمية أو محتملة فى البوسنة يستخدمها الاصوليون ضدهم خاصة بعد زيارة بيجوفيتش للسعودية المعروف عنها دعمها للحركات الاصولية فى بداية الأزمة اليوغسلافية وتغافلوا فى نفس الوقت خطر الاصولية العرقية الصربية الفاشية الموجودة فعلاً والتي شرعت فى تأسيسها دولتها الصربية الاصولية بالقوة من خلال فرض هيمنتها وسيطرتها على باقى القوميات الاخرى خاصة القومية البوسنية بعد ان تدخل العالم الغربى ومنع الصرب من فرض هيمنتهم بالقوة على السلوفان والكروات.

ونتيجة لكل ذلك أصبح من السهل ارجاع هذا الصراع القومى إلى اسس دينية خاصة وان كلمة صربى تعنى القومية الصربية وكلمة كرواتى تعنى القومية الكرواتية، اما القومية البوسنية فيتم التعبير عنها بكلمة مسلم. ومن هنا كان من السهل ان يسقط الجميع فى شرك الدعاوى الصربية الديماغوجية بما فيهم الديماغوجيون الإسلاميون فعلى سبيل المثال هاجت واستكرت بعض الاقلام الإسلامية دعوة بابا روما للنساء المختصات بعدم الاجهاض والاحتفاظ بالاجنة باعتبار ان ذلك مؤامرة صليبية يهدف من البابا من ورائها زيادة عدد المسيحيين!! علما بأن رفض الاجهاض هو موقف دينى يقول به المسلمون والمسيحيون على السواء ورجال الدين الإسلامى ناشدو نساء البوسنة بعدم الاجهاض ايضا.

هكذا وكما قلنا سقط الجميع فى الشرك وبدلا من ان تكون القضية هى قضية تحرر قومى وحق تقرير مصير اصبحت عند الاسلاميين قضية صراع بين الاسلام والمسيحية وهى مسألة اضررت البوسنة اكثر مما افادتها. وأفادت الصرب والغرب أكثر مما أضرتهن.

فى المقابل وعند البعض الآخر خاصة من الذين لا زالوا يرون فى الدولة اليوغسلافية دولة اشتراكية أو من الممكن ان تكون كذلك مرة أخرى. رأوا ان هذه التجزئة مسألة لا مبرر لها وان تفكيك الكيان اليوغسلافى يضر به اكثر مما يفيده وحملوا الغرب الامبريالى مسئولية ذلك وفى هذا الكلام قدر كبير من الصحة لكنه تجاهل عدة حقائق :-

اولا : ان الكيان اليوغسلافى هو كيان اصطناعى تم تجميعه وتركيبه لخدمة أغراض ومصالح محددة عقب الحرب

العالمية الاولى والثانية فى مصانع الرأسمالية وبالتالى يمكن تفكيكه وتجزئته اذا اقتضت الضرورة ذلك (اعادة الاستخدام).

ثانيا : ان المطروح الآن لبقاء هذا الكيان متحدا هو وقوع باقى القوميات الأخرى تحت هيمنة القومية الصربية الفاشية التوسعية الراغبة فى اقامة صربيا الكبرى وفرض هيمنتها على باقى القوميات ومحو شخصيتهم وثقافتهم ودينهم اذا اقتضى الأمر وان الطرف المعرض لحدوث ذلك فيه اكثر من غيره هو الطرف المسلم تحديدا.

ثالثا : عندما يكون الهدف الصربى هو الثأر من هؤلاء البوسنيين وجعلهم يدفعون ثمن دخول اجداد اجدادهم منذ ٥٠٠ سنة دين المستعمر كما يقولون يصبح الاصرار على بقاء البوسنة ضمن هذا الكيان المتحد هو بمثابة حكم بالاعدام عليهم وتبنى كامل لوجهة النظر الصربية الفاشية ومساعدتها على تنفيذ مخططاتها، ما لم يتم اولا ردع هذه الرغبة الفاشية التوسعية وتحجيمها وهو الأمر الذى تقاعست أوروبا عن القيام به .

رابعا : ان تحميل الطرف البوسنى المسئولية بحجة انه سعى إلى الاستقلال هى مغالطة كما رأينا فقد كانت البوسنة حريصة على بقاء يوغسلافيا المتحدة ولكن وفقا لاسس جديدة. لقد بدأوا يوغسلاف وعندما استحال ذلك أصبحوا بوسنيون هدفهم الحفاظ على البوسنة موحدة وعندما باتوا يقتلون ويطردون من بيوتهم بوصفهم مسلمين أصبحوا كذلك. لذلك فإن القاء اللوم على البوسنة بحجة انها تسعى إلى قيام دولة اسلامية، هو مغالطة غير صحيحة ولعل تشكيل مجلس الرئاسة البوسنوى المكون من صرب وكروات ومسلمين يدحض ذلك الادعاء حيث يمثل المسلمون الأكثر عددا فرد واحد فى هذا المجلس اضافة الى أن نتيجة الاستفتاء على الاستقلال تجاوزت نسبة السكان المسلمين

والكروات معا (٦٨٪) هذا في حالة النسب الشائعة ٤٦٪ مسلمون و ١٨٪ كروات. وإلى جانب كل ذلك فإن برنامج وايدولوجية حزب العمل اليمقراطى البوسنى (الإسلامى) تقول انه "حزب يتبنى الفكر الليبرالى الاوروبى ويدعو إلى التحام البوسنة وباقى الجمهوريات اليوغسلافية بأوروبا الموحدة ويشير بشكل عابر إلى امكان قيام مسلمى البوسنة بلعب دور الجسر الحضارى بين الشرق الإسلامى واوروبا كما تدعو وثائق الحزب وافكاره إلى التعايش بين شعوب يوغسلافيا القديمة ويقترح اعادة بنائها من جمهوريات مستقلة ذات سيادة تامة وخلق مؤسسات كونفدرالية" (١١٢) اى اقامة اتحاد كونفدرالى بين الجمهوريات اليوغسلافية الست وهو الأمر الذى رفضه كل من الصرب والكروات كما اوضحنا فى السابق.

هذه الرغبة القومية فى التحقق والاستقلال لدى البوسنيين والحفاظ على هوية الشعب البوسنى كان من السهل ان يتم صبغها بصبغة دينية. خاصة وكما قلنا اصبحت كلمة مسلم تعبر عن شخصية قومية بوسنية. وعندما تسود الرغبة الثأرية الغبية والحمقاء والساعية إلى جعل هؤلاء يدفعون ثمن دخول اجدادهم دين الاسلام والتعامل معهم بوصفهم خونة للشعب للشعب الصربى السلاقى - وهى مغالطة كبرى كما اوضحنا - وأيضا عندما يقوم الصرب بشكل منظم ومخطط بتدمير المساجد فى البوسنة وازالتها تماما ومحو آثارها كشفت صحيفة "يوروبا" التى تصدر فى صربيا "النقاب عن بدء حملة صربية لتدمير مساجد البوسنة التاريخية وازالة حطامها تماما لمحو أى آثار للوجود الإسلامى من هناك" (١١٣) يصبح من السهل جدا اعتبار هذه الحرب حربا دينية.

وعندما يكون هذا هو السلوك الصربي تجاه البوسنة فهل من المستغرب إذن ان يتمسك هذا الشعب بهويته الإسلامية طالما انه يزبح على اساسها وطالما ان العالم تخلى عنهم بهذا الشكل - الذى يصعب تفسيره - وتركهم طوال هذه الفترة يعانون ما يعانون ثم عندما يتدخل يمنع عنهم السلاح، ويقسم بلادهم بعد ذلك على اسس دينية لأنه لا يقبل أن يبقى الصرب والكروات تحت راية الدولة البوسنية بينما يقبل سيطرة ٢٠٠ الف صربي (١٠٪) على ٢ مليون الباني في كوسوفو (٩٠٪) حيث يمارس الصرب عمليات طمس وتغيير للهوية الثقافية والحضارية لهذا الاقليم ومنعهم من تعلم لغتهم الالبانية بل وتم تحويل اسم جامعة كوسوفو الى جامعة " سافا " وهو رجل دين صربي عاش في القرون الوسطى. ناهيك عن أن الحقوق التي تم اقرارها للصرب والكروات في البوسنة لم يتم اقرار مثلها لباقي الاقليات المسلمة في باقي الجمهوريات. هل من المستغرب بعد كل هذا ان يتم تفسير ما يحدث لهم بعيدا عن كونهم مسلمين - بالطبع لا - وان كنا نرى انه كان من الصعب على أوروبا وبعض اطرافها الفاعلة والتي سعت إلى تفكيك هذا الكيان اليوغسلافي الذى سبق اصطناعه وتفجيره من الداخل ان تترك كيان دولة البوسنة الجديد دون تفتيت أيضا حتى لا يحقق دولته الديمقراطية المتعددة الديانات والثقافات والمتعايشة بشكل طبيعي وديمقراطي مع سيادة روح التسامح بين الجميع لانها ستكون بمثابة الشاهد على فشل نموذجهم الاحادي الساعى إلى نفي الآخر والمخالف لهم ثقافيا واجتماعيا ودليل على عنصريتهم وفاشيتهم لذلك كان لابد من منع هذا الوليد من النمو والاكتمال وكان لابد وان يدفع شعب البوسنة للمرة الثانية او الثالثة ثمن اعادة ترتيب وصياغة النظام العالمى وفقا للرغبات والمصالح الغربية وكان لابد وان تكون

هذه الحرب البشعة والتي تكررت فى هذا المكان اكثـر من مرة
وبنفس القدر من الوحشية والبشاعة.

ودعونا نقرأ بعضا مما جاء فى أحد التقارير - لـاحد
اللجان التى شكلتها أوروبا وامريكا أيضا - عن حرب البلقان
الثانية عام ١٩١٣ والتى لم يكن الاتراك طرفا فيها على لسان
أحد الأعضاء الفرنسيين المسيو غودار يقول التقرير "ان الحرب
لا تشنها الجيوش وحدها بل الأمم أيضا.. وهذا يجعلها دموية إلى
هذا الحد ومكلفة فى الأرواح بحيث تنتهى دائما بإبادة السكان
وتدمير مناطق بأكملها ويضيف التقرير ان الهدف من النزاع
المسلح هو إبادة مجموعات من السكان الغرباء (الآخر) فالقرى
لا تحتل فحسب بل تدمر أيضا وحيث لا يفروا يرغمون على
الفرار وتحرق بيوتهم. مسكين هو الشاب الذى فى سن الجنديّة
أو المرأة (العدوة) التى يعثر عليها حية فى قرية محتلة :
الاغتصاب حاضرا ابدا وأحيانا الموت ويتجه الضحايا المشردون
إلى الطرقات أو الجبال بالالوف فى بحث مرعب عن مكان
يستطيعون على الأقل ان يسندوا إليه رؤوسهم وقد رأينا أمواجا
كبيرة من اللاجئين المثيرين للشفقة. أما أسرى الحرب فإنهم إذا
لم يقتلوا على الفور كانوا يقتادون إلى معسكرات فى العراق حيث
يموتون جوعا" (١١٤).

هذا ما حدث فى عام ١٩١٣ أما فى عام ١٩٩٣ فقد
نشرت الاندبندنت مقتطفات من تقرير سرى مشابة رفعتة لجنة
تحقيق أوروبية إلى المجلس الوزارى للمجموعة الأوروبية جاء
فيه "ان القوات الصربية ساهمت فى تنفيذ أعمال اغتصاب منظم
لما لا يقل عن ٢٠ ألف من الفتيات والنساء وان الاغتصاب
يستخدم لتحقيق أهداف سياسة التطهير العرقى وقال وزير
خارجية إيرلندا المشارك فى بعثة التحقيق ان عمليات الاغتصاب

ترتكب بطرق سادية للغاية كى تلحق بالضحايا اكبر قدر من المهانة" (١١٥) كذلك اورد مازوسكى رئيس وزراء بولندا فى تقريره كلاما عن "عمليات احراق قرى اسلامية وتدميرها بكاملها وابادة اهلها واستخدام المقابر الجماعية لدفنهم" (١١٦) اضافة الى معسكرات الاعتقال الجماعية

هذا الكلام تم نشره فى يناير ١٩٩٣ والاكيد ان ما تم بعد ذلك اشد وافظع فهل هناك فرق بين ما جاء فى تقرير عام ١٩١٣ وتقرير عام ١٩٩٣ عن هذه المنطقة ؟ هناك فرق بسيط وهو ان العالم كان يشاهد ذلك يوميا على شاشات التليفزيون اثناء تناول وجبات الطعام !! كما وأن هناك اضافة جديدة وهى مشاركة بعض أفراد القوات الدولية فى عمليات الاغتصاب التى تمت للنساء البوسنيات!! وهكذا اعاد التاريخ نفسه فإذا كانت المرة الاولى مأساة فإن الثانية مهزلة، مهزلة شارك فيها العالم كله بصمته وتأميره فى كل مرة. وفى كل مرة كان الشعب البوسنى هو الذى يدفع ثمن إعادة صياغة العالم من جديد. يدفع الثمن فى وجود الحرب الساخنة والباردة وفى اختفاءهما.

كذلك وايا كانت الاسباب التى تكمن وراء ذلك سواء كانت سياسية أم اقتصادية أم تاريخية أم دينية أم جغرافية فإنها لا تبرر حدوث هذه الجريمة على الاطلاق تلك الجريمة التى تفجرت بسبب رغبة الصرب التوسعية فى احياء مشروعها القديم واصرار العالم الغربى على منع القومية البوسنية من التحرر والانعتاق من سيطرة القومية الصربية أو الكرواتية خوفا من وهم اسمه الدولة الإسلامية.

لقد أكدت احداث البوسنة زيف وكذب كل الادعاءات حول الشرعية الدولية وعدم مشروعية العدوان وحقوق الانسان والنظام العالمى الجديد إلى آخر هذه المصطلحات التى تم

تدشينها وترويجها عقب حرب الخليج الثانية لكنها سقطت تماما في مستنقع البلقان والبوسنة اما نحن فلا نملك الا ان نصرخ ونقول انظروا العالم الغربى فقد مصداقيته ويكيل بمكيالين وننسى دائما انه لديه مكيال واحد وهو مصالحه سواء حرر الكويت أو قسم البوسنة، ارتدى العمامة الإسلامية - كما حدث فى افغانستان - أو خلعها وأخاف بها العالم كما حدث فى البوسنة. والغريب أن المتأسلمين يساعدون العالم الغربى فى الحالتين، سواء عندما يهاجمون الغرب فى جانبه المضى المتمثل فى انجازاته العقلية والمعرفية وأساليب الحكم الديموقراطى أو عندما يستجدون بقواته ومؤسساته الفاشية العسكرية لانقاذهم. ولا مانع بعد ذلك من الحديث عن الغرب الاستعمارى الكافر اذا لم يتوافق تماما مع ما يريدون ولا مانع أيضا من الاستفادة بديموقراطية الغرب هناك للهجوم عليه والتشنيع به وتهديده بأن رايه افسلام سترتفع على أوروبا ولك ان تتخيل رد فعلنا نحن العرب المسلمون لو أن بعض مواطنى أوروبا أعلنوا وصرحوا بأن رايه المسيحية سترترف على البلدان العربية. هل سنتركهم يعيشون بيننا !! أنها حالة من الفصام خص بها الله عبادة المتأسلمين.

الهوامش

- ١- د. محمد فؤاد شكرى ود. محمد انيس - أوروبا فى العصور الحديثة ص ١٢٣ - ١٢٤
- ٢- سعيد عبد الفتاح عاشور - أوروبا فى العصور الوسطى. مكتبة الانجلو المصرية ص ١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٧.
- ٣- محمد فؤاد كوبرلى - قيام الدولة العثمانية ص ١٢ - الهيئة العامة للكتاب.
- ٤- الحياة ١٩٩٣/٥/٦
- ٥- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٤١٨.
- ٦- محمد فؤاد كوبرلى - مصدر سابق ص ١٠.
- ٧- محمد السماك التقاطع الدينى والقومى فى حروب البوسنة - الحياة ١٩٩٣/٣/١٥
- ٨- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٤٣٣.
- ٩- د. سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٦٥٢ مصدر سابق.
- ١٠- بول كولز - العثمانيون فى اوربا - ترجمة عبد الرحمن الشيخ - الهيئة العامة للكتاب ص ٣٣.
- ١١- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٦٥٣.
- ١٢- بول كولز - مصدر سابق ص ٣١.
- ١٣- من كتاب اشباع الصرب تأليف روبرت كابلان نقلا عن الاهرام ١٩٩٣/٥/٥
- ١٤- بول كولز - مصدر سابق ص ١٦٩.
- ١٥- التصديق العالمى ل.س ستافريانوس ترجمة موسى الذغبى - عبد الكريم محفوظ - دار طلاس دمشق ١٩٨٨ ص ١٢٤
- ١٦- د. سعيد عبد الفتاح عاشور - مصدر سابق ص ٦٠١.
- ١٧- بول كولز - مصدر سابق ص ٢٩.
- ١٨- كارل بروكلمان - تاريخ مسيرة الشعوب الإسلامية ص ٤٨٧.
- ١٩- بول كولز - مصدر سابق ص ٧٣، ٩٩.
- ٢٠- ل.س ستافريانوس مصدر سابق ص ١٢١

- ٢١- دولة الشرق الاستبدادية بييري اندرسون. ترجمة بديع نظمسي مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت ١٩٨٣ ص ٢٠
- ٢٢- بول كولز - مصدر سابق ص ١٠٠.
- ٢٣- بول كولز - مصدر سابق ص ١٦٢
- ٢٤- كارل بروكلمان - مصدر سابق ص ٤٨٩
- ٢٥- بول كولز - مصدر سابق ص ٣٧
- ٢٦- كارل بروكلمان - مصدر سابق ص ٤٨٨
- ٢٧- بول كولز - مصدر سابق ص ١١٨
- ٢٨- بول كولز - مصدر سابق ص ٣٦، ٣٧
- ٢٩- روبير مونتران - الحياة ١٩٩٣/١/١٢
- ٣٠- بول كولز - مصدر سابق ص ٧٢، ٧٣
- ٣١- بول كولز - مصدر سابق ص ١١٩
- ٣٢- بول كولز - مصدر سابق ص ١١٨
- ٣٣- عمر زكى عبد الوهاب - التسامح الدينى مقابل همجية العصور الوسطى الحياة ١٩٩٣/٨/٣١ .
- ٣٤- بييري اندرسون. مرجع سابق ص ١٥، ١٦.
- ٣٥- عمر زكى عبد الوهاب - مصدر سابق
- ٣٦- نقلا عن ستافريانوس.. مصدر سابق ص ١٣٦، ١٣٧
- ٣٧- سمير امين - استغلال العرقية فى يوغسلافيا السياسة الدولية يوليو ١٩٩٣.
- ٣٨- الحياة ٩٣/٣/١٥
- ٣٩- احمد ابراهيم احمد - الحياة ٩٣/٤/١٨
- ٤٠- سمير امين - مصدر سابق
- ٤١- سمير امين - مصدر سابق
- ٤٢- العالم اليوم ١٩٩٣/٥/٢ نقلا عن د. لطفى عبد العظيم
- ٤٣- سمير امين مصدر سابق
- ٤٤- الحياة ٩٣/١/٦
- ٤٥- الحياة ٩٣/١/٢٨
- ٤٦- الاهرام ٩٣/٤/٧
- ٤٧- الاهلى ٩٣/٤/٧
- ٤٨- النور ٩٣/٣/١٧
- ٤٩- الشرق الاوسط ٩٣/٦/١٨

- ٥٠- الاهرام المسانى ٩٣/١/٦
٥٢- الاهرام ٩٣/١/٩
٥٤- الاهرام ٩٣/٤/٢٤
٥٦- الاخبار ٩٣/٤/٢٨
٥٨- الشرق الاوسط ٩٣/١/١١
٦٠- الحياة ٩٣/٧/١٤
٦٢- الاهرام ٩٣/٧/١٥
٦٤- الجمهورية ٩٣/١/٨
٦٦- الاهرام ٩٣/٨/٢٤
٦٧- الانباء ٩٣/٩/٢ نقلًا عن الهيرالد تريبيون.
٦٨- الحياة ٩٣/١/٣١
٦٩- الاهرام ٩٣/٦/٦ نقلًا عن أحمد بهجت
٧٠- الاخبار ٩٣/٤/٢١
٧١- الاهرام ٩٣/٥/١٩
٧٣- الاهرام ٩٣/٥/٢٤
٧٥- الشرق الاوسط ٩٣/٥/٣٠
٧٧- الجمهورية ٩٣/٦/١٩
٧٩- الجمهورية ٩٣/٧/٢
٨١- الاخبار ٩٣/٧/١٣
٨٣- المساء ٩٣/٨/٢
٨٥- الحياة ٩٣/٨/٨
٨٧- الاهرام ٩٣/٨/٢٠
٨٩- الحياة ٩٣/٩/١٠
٩١- الاهرام ٩٣/٩/١٠
٩٣- الوفد ٩٣/٩/١٨
٩٥- الجمهورية ٩٣/٩/٢
٩٧- الحياة ٩٣/١٠/١٢
٩٩- الحياة ٩٣/١٠/٢٨
١٠١- الاخبار ٩٣/١١/٢٣
١٠٣- الاهرام ٩٣/١١/٢٦
٥١- الشرق الاوسط ٩٣/١/٦
٥٣- الاخبار ٩٤/١/١٦
٥٥- الاهرام ٩٣/٣/٥
٥٧- العالم اليوم ٩٣/٥/٢
٥٩- آخر ساعة ٩٣/١/٦
٦١- الاهرام المسانى ٩٣/٤/١٤
٦٣- الاهرام ٩٣/٣/٤
٦٥- العالم اليوم ٩٣/١/١٥
٧٢- الاهرام ٩٣/٥/٢٣
٧٤- الوفد ٩٣/٥/٢٥
٧٦- الاهرام ٩٣/٦/١٠
٧٨- حياة ٩٣/٧/١٥
٨٠- الحياة ٩٣/٧/٥
٨٢- الاهرام ٩٣/٧/٢٢
٨٤- الجمهورية ٩٣/٨/٧
٨٦- الشرق الاوسط ٩٣/٨/١٦
٨٨- الشرق الاوسط ٩٣/٩/٦
٩٠- العالم اليوم ٩٣/٩/٩
٩٢- الاهرام ٩٣/٩/٧
٩٤- الحقيقة ٩٣/٩/١٨
٩٦- الحياة ٩٣/١٠/١٣
٩٨- الحياة ٩٣/١٠/٢٧
١٠٠- الاخبار ٩٣/١١/١٨
١٠٢- الاهرام ٩٣/١١/٢٥
١٠٤- الحياة ٩٣/١١/٢٢

- ١٠٥- الحياة ٩٣/١١/٢٥
١٠٦- ولید نوبهض الحياة ٩٣/٤/٢٢
١٠٧- بول كولز - مصدر سابق ص ١١٩
١٠٨- الحياة ٩٣/١/١٢
١٠٩- الحياة ٩٣/١/٢٠
١١٠- الوفد ٩٣/١/١٨
١١١- الحياة ٩٣/١/١٢
١١٢- محمد خليفة - أزمة يوغسلافيا ومأساة البوسنة مجلة مستقبل العالم
الإسلامي العدد ١١/١٠
١١٣- الشعب ٩٣/٤/٢
١١٤- سمير عطا الله - البلقان جذور في الدماء الشرق الاوسط ٩٣/٧/١
١١٥- الحياة ٩٣/١/٧
١١٦- مجلة الوطن العربي ٩٣/١/٨

البوسنة والميراث الدامي

بههدف معرفة الأسباب الحقيقية للصراع الدامي في يوغسلافيا السابقة (والبوسنة تحديدا) ، نناول هذا الكتاب تاريخ البلقان لمعرفة خصوصيته ومتى كان يستقر ومتى يتفجر ؟ وكيف دخل الاتراك إليه ؟ ومتى عرفت هذه المنطقة الإسلام ؟ ولماذا اعتنقه البعض ؟ ولماذا كان الصراع في البوسنة هو الأكثر دموية وشراسة وهمجية ؟ ولماذا الصمت والتواطؤ الغربي ؟ هل هو الاختلاف الديني أو العرقي كما هو شائع ، أم أن هناك أسبابا أخرى كثيرة ومتعددة بعضها تاريخي كامن في الذاكرة وبعضها اقتصادي وسياسي ترتبط كلها بصراع الأدوار وطموح الدول المجاورة ، وغير المجاورة ، كلما سنحت الفرصة نتيجة للمتغيرات الدولية ؟ لماذا تتفكك يوغسلافيا في زمن التوحيد الأوروبي ؟ أين دعاوى الشرعية الدولية إلى آخر هذه الفضيحة الأخلاقية والسياسية ؟ ما هو موقف الأطراف الدولية من هذا الصراع فعليا ؟ وهل السلام الذي تحقق هناك سيعيد إلى هذه المنطقة أمانها المفقود ، أم أنه مجرد هدنة سيعقبها الانفجار مرة أخرى عندما تحين الفرصة ؟



Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com